القسم الثالث

صدام ونكسة ٩٠

لحظة الانتحار القومى

اعادة فرز سلة الأفكار

جدل الإسلاميين

أين حزب الله ؟

هل يعيد التاريخ نفسه

من يخسر ومن يستفيد

حسابات خاطئة

هل جاء وقت المحاكمة

عريضة اتهام

محاولة لفهم ما جرى

هل كانت - فقط - مؤامرة ؟

مصدر الخطر

* فقه العدوان

* توظيف الإسلام

* ازالة العدوان على العقل

* ما تبقى من المؤامرة

* أسرار ترسانة صدام

* اوان التفكير بصوت عال

* وقت الاختيار

لحظة الإنتحار القومى !

الذين يحاولون تصوير صدام حسين على أنه عبد الناصر التسعينات يرتكبون خطأ بالغا فى حق أمتهم ومستقبلها، إنهم أولا يتجاهلون الخلافات الجوهرية بينهما سواء فى شخصية كل منهما أو تركيبته الفكرية أو قدرته عل تفهم الظروف الدولية والإستجابة لها. وإن كانت هناك نقطة يتفق فيها الرجلان فهى إن كليهما وصل فى نهاية طريقه، ونتيجة لخطأ فى الحسابات، إلى «نكسة» بددت الحلم، وأعادت بلده قريبا من نقطة الصفر التى بدأ منها وجرت على الأمة العربية هما ثقيلا من الهزيمة والتخلف والإنقسام.

القول بأن صدام حسين هو عبد الناصر التسعينات يتجاهل الفارق بين «الزعيم» و «المغامر». بين صاحب الرسالة وصاحب الأطماع.. كلاهما رفع لواء القومية والوحدة لكن عبد الناصر لم يخطر بباله تحقيق هذه الوحدة بجيوشه وبقهر الشعوب العربية الصغيرة، أو بإغتصاب ثرواتها، لأنه كان ـ كزعيم ـ يدرك أن الوحدة ليست قفزة مغامرة، ولكنها عملية دمج سياسى وإقتصادى وإجتماعى بين شعوب

بينها فوارق كما يربطها التماثل، ولذلك لا تتحقق إلا بالعمل الشعبى من ناحية، وبتوافر ظروف موضوعية للوحدة من ناحية أخرى. لم يجهز عبد الناصر جيشه أبدا لغزو بلد عربى وفرض الوحدة عليه، ولم يفكر يوما فى أن الوحدة يمكن أن تتحقق بإغتصاب أوطان عربية وتشريد أهلها، وليس فى تاريخه محاولة أو تفكير من هذا النوع.. الوحدة مع سوريا سبقها استفتاء للشعبين عبرا فيه عن إرادتيهما والتقت حكومتا البلدين للتوقيع على وثيقة الوحدة، وشاركت المؤسسات الدستورية فيهما منذ البداية.. الإرادة كانت هى المحرك الأساسى.. لكن ما حدث فى الكويت شئ آخر أقرب إلى الغزوات الإستعمارية القديمة. فغزو الكويت جاء بهدف أعلنه صدام حسين هو الإستيلاء على ثرواتها لأن العراق أولى بها! هل يختلف فى ذلك كثيرا عما فعلته الجيوش البريطانية فى غزوها للهند للإستيلاء على ثرواتها الطبيعية..؟ أو هل يختلف فكره عن نظرية «المجال الحيوى» التى جعلت هتلر يغزو من حوله ويتوسع فى الغزو، وهى نفس النظرية التى جعلت اليابان تدخل الحرب العالمية الثانية فى محور واحد مع النازية.

سقطت دعاوى القومية، بل وسقطت دعوى «الحقوق التاريخية» للعراق فى الكويت لحظة تنازل صدام حسين عن الحقوق التاريخية فى شط العرب التى حصل عليها بالحرب والدم واستنزاف المال العراقى والخليجى كى ينقض على الكويت تحت ستار حقوق تاريخية أخرى!

هو إحتلال بالمعنى الإستعمارى القديم لا يغير من حقيقته علاقة الجوار، أو كون القاتل والقتيل يتكلمان لغة واحدة، أو أن لهما علاقات فى إطار قومى... ولو أردنا تفهم كيف تكون الوحدة فأمامنا الوحدة الأوروبية وخطوات تنفيذها خطوة خطوة نابعة من إرادة الشعوب وبعد استفتاء فى كل بلد، وعلى أيدى السياسيين وحدهم، وليس على أيدى الجيوش وبالدبابات.

ووحدة الألمانيتين قد رأينا كيف تتحقق أمام عيوننا، تعطينا صورة أخرى للوحدة والإندماج بالرضا الشعبى وليس بالغزو والإكراه.

مهما قيل من شعارات الوحدة فستدخل واقعة «غزوة الكويت» التاريخ على أنها لحظة تغلبت فيها الأطماع التوسعية القطرية على المبادئ القومية، وحركتها أحلام تحقيق الزعامة السهلة بدل الطريق الحقيقى للزعامة، وهو طريق صعب.. طريق يبدأ بإنجازات يحققها الزعيم فى بلده فيجعل منها مركز قوة حضارية، ومثلا أعلى، ونقطة جذب، تجعل تحقيق الوحدة بالإندماج بعد ذلك ممكنة حين تتوافر لها الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية والفكرية.. دون قسر.. هذا الطريق الطويل يحتاج إلى زعيم.. أما إغتصاب بلد صغير فشئ آخر.. غزو الكويت لحظة تغلبت فيها روح المغامرة على حسابات الواقع.. وزهو إنتصار اللحظة عن رؤية ماسيتلوها من إنكسار هزيمة الدهر، ليس لقائد واحد ولا لدولة واحدة بل لكل القادة، ولكل العرب! هى فى التحليل النهائى نكسة أخرى أشد من نكسة ٦٧. بل هى إستكمال لها لتحقيق ما لم يتحقق بها.

نكسة ٦٧ ضيعت ما حققه عبد الناصر من مكاسب فى الصراع الذى قاده بين قوى التحرر وقوى التبعية.. وضيعت الوعى العربى فأصبح تبديد الثروة العربية ممكنا.. والإكتفاء بإستيراد قشور الحضارة دون المشاركة فى صنعها هدفا.. وتوجيه السلاح العربى إلى الصدور العربية مبررا فى عمل أقرب إلى الإنتحار القومى، من قائد قامت دعوته على شعارات الأحياء القومى.. وفى النهاية سوف تجد الأمة العربية نفسها خارج التاريخ.. هذا المصير لم يتحقق فى نكسة ٦٧ لكنه يمكن أن يتحقق بعد نكسة ٩٠.. بعد نكسة ٦٧ بقيت فى الأمة العربية إرادة الحياة وطموح إلى التقدم فكان لابد من نكسة جديدة تدمر ما تبقى!

نكسة ٩٠ جاءت فى وقت كانت المنطقة قد بدأت مرحلة من التفاهم وتصفية الخلافات وظهرت كيانات وحدوية وإن تكن هشة فيكفى أنها تحافظ على قوة الدفع إلى أن يمكن تحقيق الوحدة الحقيقية بظروفها وشروطها الموضوعية.. إلى أين تقودنا نكسة ٩٠؟ تبديد الثروات العربية فى معركة غبية؟ ضياع أحلام الوحدة تحت وطأة مخاوف وتوجس أصبح لدى كل عربى من كل عربى آخر، بعد أن تحول من كان يأخذ الأموال العربية ليحمى بوابة العرب الشرقية إلى أكبر تهديد للعرب من نفس البوابة؟!

نكسة ٦٧ كرست ضياع فلسطين وحولت سيناء والضفة والجولان والقدس أسرى. أما نكسة ٩٠ فيمكن أن تكرس ضياع حقوق

الفلسطينيين وبقية أرضهم وحتى قدرتهم على الإنتفاض، نكسة ٦٧ كانت تعبيرا عن حقيقة أن الصراع فى المنطقة هو أساسا صراع عربى إسرائيلى.. أدرك بها العرب أن المواجهة الحضارية طويلة.. يرتبط فيها النصر بالقدرة على توظيف عناصر القوة العربية وتعديل موازين القوى، أما بنكسة ٩٠ فقد أصبح الصراع فى المنطقة عربيا ـ عربيا. أن ضياع وطن (فلسطين) جعل ضياع وطن ثان سهلا (لبنان) وتعرض وطن ثالث للضياع (الكويت) حلقات السلسلة العربية تتساقط ودول عربية أخرى أصبح ظهرها مكشوفا.. لا يهم من الذى يمكن أن يقوم بالعدوان عليها.. فالعدوان عدوان.. وعدوان الشقيق ليس أفضل من عدوان العدو.

ونكسة ٦٧ أمكن تجاوزها ولو جزئيا.. ولو نفسيا.. أما نكسة ٩٠ فقد كانت بداية النهاية. نكسة ٦٧ تاريخ مضى، لا يمكن تدارك أخطائه، أما نكسة ٩٠ فمازالت أحداثها تنبض يمكن تداركها.. الإنقاذ ممكن رغم بحور الدم والكراهية ومرارة غدر الشقيق، لكن ذلك يحتاج إلى بصيرة تنفذ إلى المستقبل وتخترق سواد السحب القادمة فى الغد، وتحتاج إلى ذروة الشجاعة والبطولة قبل أن يتم إغلاق الأبواب وخنق المستقبل العربى.. هل يمكن أن يرى صدام حسين الهوة السحيقة التى إنساق ليلقى فيها نفسه وتاريخه وجيشه وبلده وأمته العربية؟

دعونا نبتهل ونصلى قبل أن تتكامل أبعاد نكسة ٩٠ وتصبح الأمة

العربية خارج التاريخ. وياليتنا ندرك أن الآلام التى عشناها حتى الآن ليست آخر فصول المأساة.. هناك فصول أخرى لم يفتح عنها الستار سوف نقاسى فيها أكثر مما قاسينا.. والسبب صدام حسين.!

إعادة فرز سلة الأفكار العربية !

عندما أراد الفيلسوف الفرنسى الكبير ديكارت أن يؤسس فكرا جديدا لإعادة بناء العقل الأوربى بدأ بداية بسيطة. ولكنها شديدة الأهمية، فقد رأى أن العقل الأوربى ملىء بأفكار كثيرة مستقرة لا أحد يعرف من أين جاءت، ولم يفكر أحد فى إختبار مدى صحتها أو صلاحيتها. ولذلك حدد ديكارت نقطة البداية بإعادة فرز كل ما فى هذا العقل من أفكار فكرة فكرة، وبالوقوف أمام كل فكرة وتفحصها بدقة ليرى إن كانت صالحة أم فاسدة، وكانت وجهة نظره أن العقل الإنسانى مثل سلة الفاكهة، وأن تفاحة واحدة فاسدة لابد أن تصيب بالفساد بقية التفاح فى السلة، وأعتقد أن هذا المنهج هو ما نحتاجه الآن ـ بالذات ـ بعد المحنة التى عشناها منذ الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠.

إن العقل العربى محتاج الآن ـ وفورا ـ إلى إكتساب مقدرة جديدة للتمييز بين الخطأ والصواب، فلا تزال الموازين حتى الآن مختلة، والحدود الفاصلة غامضة.. أنظر كيف استطاع صدام حسين أن يجاهر بأنه إغتصب الكويت ليحرر فلسطين، دون أن يرى أن مثل هذا القول سوف يجعل قومه يستهينون بعقله وبقضيته وينفضون من حوله. ويزيد الأمر غرابة أن تتجاوب معه عقول، وأن يردد هذا الزيف أشخاص كنا نتوهم فيهم العقل والحكمة، ثم يحاول آخرون ـ ممن يتاجرون بآلام وأقدار الأمة ـ ليروجوا للفكرة، وكأن الساحة العربية يمكن أن تتحول إلى مستشفى للمجانين حتى يصدقوا هذا القول الغريب.. ما هو المعيار لتحديد الخطأ والصواب.. ماذا يعصم العقل العربى من الوقوع مستقبلا فى شباك المضللين والمتاجرين والمزايدين فى كل قضية.. قد يقال أنه لو لم تكن لهذه القضايا الضالة صدى وإستجابة فى عقول أخرى مضللة لما قبلت وإنتشرت، وهذا حق، وإذن فالحاجة ماسة إلى العودة إلى منهج العقل، وإستعادة ملكة التفكير والنقد لدى العرب مرة أخرى.

ثم أنظر إلى الذين عميت أبصارهم عما لحق بالكويت من ظلم ودمار ولم يروا إلا ما لحق بالعراق، وفقدوا تماما القدرة على الربط بين الأولى كسبب والثانية كنتيجة، ولو لم تقع الأولى لما وقعت الثانية، ولو ظل صدام حسين زعيما وقائدا فى بلده دون أن يعتدى على بلاد الناس، لما وجد الناس سببا للإعتداء عليه، لكن آليات التضليل فى العقل العربى لم تر الأشياء كما هى فى الواقع، وفضلت

أن تعيش على خداع النفس ورفض الواقع، وأن تروج للكذب وتتنكر للحقيقة، أنظر إلى العقل الذى يرى الأشياء لا كما هى فى حقيقتها ولكن كما يريد أن يراها بالوهم وخداع النفس.. فالعالم كله يرى الفارق المخيف فى القوة العسكرية بين العراق والحلفاء ويحذر من العواقب الوخيمة والهزيمة الحتمية لصدام وأطماعه، بينما صدام حسين مصر إلى آخر لحظة أنه سينتصر، وأن إحتمال هزيمته غير وارد ولا بنسبة واحد فى المليون كما قال.. وبعد أن تحطمت طائراته وتعطلت أجهزة إتصالاته وأصبح مثل خيال المآتة أعلن أن الحلفاء يخافون مواجهة عبقريته العسكرية فى الحرب البرية.. ثم بعد هزيمته الكاملة أعلن أنه إنتصر وحقق أهدافه ويكفى أنه فعل بالعالم كذا وكذا.. هل يمكن أن ينبت هذا العقل الضال المضلل من فراغ، وإن كانت كذلك فهل رأى كل من سمعه أنه عقل مختل أم أن بعض العقول إستجابت وتجاوبت ورددت نفس الهلوسة.. إذن فالخلل العقلى ظاهرة موجودة، قد يكون حجمها محدودا، ولكنها تفاحة فاسدة لابد أنها ستنقل الفساد إلى سائر ما فى السلة العربية.

هل يمكن أن يعيش شعب فى غيبوبة كهذه من صنع قائده، وفى ظل إنقطاع الصلة بينه وبين ما يجرى فى الواقع.. ثم تأتى لحظة الحقيقة لتقع كالصاعقة على رأس الجميع ـ أو على الأقل على رأس الذين لم يتوقعوها لأنهم استسلموا للغيبوبة العقلية ـ فإذا بالبناء ينهار لأنه قائم على وهم، وإذا بالروح تحتنق لأنها كانت تتنفس الأكاذيب، وإذا بالإحباط والشعور الداخلى بالهزيمة يهدد العقل العربى مرة

أخرى بالنكوص، والإرتداد إلى مرحلة البدائية الأولى، وتواجه الشخصية العربية مرة أخرى التهديد بفقدان الهمة وعجز الإرادة..

ألا يحتاج ذلك إلى وقفة للإنقاذ قبل أن تترسخ الآثار المدمرة للهزيمة فى الروح. لندرك أن المسئول عنها شخص واحد أصاب بالعدوى مجموعة حوله، كالثمرة الذى أفسدها العطب فأفسدت ثمارا حولها.

ألم تكشف المأساة التى سببها صدام حسين أن فكرة العروبة مازالت غامضة، تحتاج إلى إعادة فحص من الأساس. لندرك ما هى وما حدودها.. هل الوحدة العربية هى المسيطرة يفرضها الأقوى، يطلب المال ابتزازا، فإن لم ينل منه كفايته حرك جيوشه وطرد أهل البلد من بلدهم.. هل العروبة هى الإستيلاء على ثروات الآخرين أو حرقها..؟

والقضية الفلسطينية، هل هى ستار ترتكب الجرائم بإسمها فلا ينبغى لأحد أن يعترض وإلا كان خائنا للقضية وعميلا للقوى الأجنبية..؟

ثم ألم تكشف هذه المأساة أن إتفاق العرب جميعا وتوحدهم أمر مازال بعيد المنال، لأن الوحدة درجة من الحضارة لم يبلغها العرب بعد، وهدف يستحق السعى إليه لكنه لم يتحقق، والأمر الواقع الآن أن كل إرادة عربية تقابلها إرادة عربية أخرى تعترض وتتهم وتهدد، والعقل العربى يستجيب للقضية ونقيضها، وللشئ وضده، مع هؤلاء

وهؤلاء، وبدلا من مناقشة الفكر بالفكر يكتفى بإطلاق قذائف الكلمات الملتهبة والعبارات المسمومة، فيتحول الواقع العربى إلى كلام هنا وكلام مضاد هناك، وتضيع الحقيقة وينتقل الفساد من ثمرة إلى أخرى حتى تمتلئ سلة العقل العربى بالثمار الفاسدة.!

إذا كانت هذه تطورات فى ساحة الواقع العربى، فإن حاجة العقل العربى إلى عمل جاد ومنظم لإنقاذه أهم وأولى بالرعاية، لأن بداية الخطر تأتى دائما من العقل، وسياج الحماية هو دائما العقل، والعاصم من الجموح هو العقل، فإن الحاجة الآن ماسة إلى تأسيس العقل العربى على قواعد ثابتة تقوم على أفكار سليمة، واضحة، ومتميزة، بنفس المنهج الذى شيد به الفيلسوف الفرنسى ديكارت الفلسفة التى قامت عليها الحضارة الغربية، وان اختلفت ـ بالطبع ـ فى المضمون.

وأنظروا إلى الثمار الفاسدة التى دسها صدام حسين فى سلة العقل العربى لتدركوا ما أقصده.. مثل فكرة أن هذه الحرب هى حرب الإسلام ضد أعدائه.. بينما انصب عداؤه على الكويت البلد المسلم.. أو أن رد إعتداء المعتدى المسلم على أخيه المسلم بأى وسيلة ممكنة حرام شرعا.. وكأن الحلال شرعاً أن يستسلم كل مسلم لكل مسلم آخر أقوى منه يغتصب أرضه وماله وعرضه..! أو أن ضرب المعتدى لرده عن عدوانه هو إعتداء على العروبة والإسلام.. وكأن العروبة والإسلام لا يحكمهما إلا قانون الغاب..!

نقول ذلك بقصد بناء العقل العربى على أسس صحيحة، وبناء العالم العربى بالتالى ـ وفقا لمنطق سليم، يقوم على مسلمات من الواقع، ويستنتج الأحكام استنتاجاً صحيحاً من مقدمات صحيحة وأفكار نابعة من عقل سليم. . ومن أجل إعادة العراق إلى مجده، ليكون قوة للعرب، وليس مصدر تهديد لهم.

جدل الإسلاميين

من نكد الدهر أن الذين أرادوا أن يحكمونا بإسم الشريعة، وقالوا أنهم لا ينطقون إلا بمراد الله تعالى إختلفوا ويختلفون فى كل شئ، لكن إختلافهم حول إعتداء الرئيس صدام حسين على الكويت كشف مقاصد البعض ونقل قضية الحكم بالشريعة إلى منعطف جديد.

كانت المسألة شديدة الوضوح، عدوان وقع على دولة مسلمة من دولة أخرى مسلمة، ليس دفاعا عن الإسلام وتأكيدا لمبادئه ولكن من أجل تحقيق أطماع التوسع والزعامة وإغتصاب الثروة، لكن الإسلاميين إنقسموا حيث كان ينبغى أن يتفقوا، ولو كان مصدر وحيهم هو الشريعة، ومراد الله تعالى، لما كان معقولا ولا مقبولا أن تحكم الشريعة الواحدة على الفعل الواحد بأنه خطأ وصواب فى وقت واحد، ولا أن يكون مراد الله الواحد الأحد مع صدام حسين

وضده فى آن واحد. وهنا إنكشف ما لم يكن مستورا، ولكنه كان مغيبا بالتضليل، وهو أن القضايا المطروحة بإسم الحكم بالشريعة ليست من قضايا الشريعة، ولكنها فى الأصل قضايا سياسية خلافية تريد أن تتخفى وراء الدين وهو ما ليس عليه خلاف، لتكسب لنفسها قوة ليست من طبيعتها، وتصبح قادرة على الفتك بالمعارضين لها بإدعاء أنهم كفرة.!

على هامش ندوة بالغة الأهمية عقدت فى القاهرة تفجرت هذه المسألة دون أن تكون هى موضوعها الأساسى. كان الموضوع هو البحث عن كيفية إزالة آثار الفتنة، والسبيل لإعادة التلاحم بين الأمة الإسلامية بعد أزمة الخليج، وكان أول المتحدثين الدكتور عبدالله التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض. وحين بدأ بإستعراض أسباب الفتنة التى مهدت لعدوان صدام حسين عدد منها الكثير، فكان أولها الأعراض عن منهج الله، مما يعنى أن منهج الله مازال غامضا وغائبا عن الساحة. وكان ثانيها وجود الطغيان والإستبداد فى أرض الإسلام، ووجود حكام ممن ينطبق عليهم حكم الله على المفسدين فى الأرض والظالمين، أما ثالث الأسباب فكان سلوك البعض فى مسايرة الطغاة، كانوا يعلمون أن صدام حسين ظالم مستبد ومع ذلك أيدوه وناصروه حتى بعد أن أسفر عن وجهه القبيح بالعدوان على الكويت، وخالفوا بذلك صريح أمر الله «ولاتركنوا إلى الذين ظلموا»، ورابع الأسباب أن بعض الطيبين

إنخدعوا بشعارات زائفة، إصلاحية وإسلامية، والمفروض أن تكون لدى المسلم ملكة النقد والحكم الصائب وبخاصة فى المواقف الحرجة.

من هنا بدأت الندوة تمس جرحا غائرا فى نفوس الحاضرين وكانوا حشدا من الصفوة.. كيف وقف بعض الإسلاميين مع صدام حسين.. وكيف لعاقل أن يفهم أن يعقد فى أسبوع واحد أثناء إحتدام الأزمة مؤتمران إسلاميان حضرهما كبار شيوخ ورموز الإسلاميين.. مؤتمر فى السعودية لإدانة عدوان صدام حسين وتأييد الكويت، والآخر فى بغداد لإدانة الكويت والسعودية وتأييد عدوان صدام حسين، وترددت فى المؤتمرين نفس الأقوال والآيات والأحاديث، فأصبح من الطبيعى أن يشعر المسلم العادى بالحيرة، ويقطع بأنه لابد أن الصدق فى جانب والكذب فى الجانب الآخر، لأن الله لا يمكن أن يكون مع صدام حسين وضده فى وقت واحد، ولابد أن هناك من يزيفون الحق وهم يعلمون.. أو وهم لا يعلمون!

إنتقل الحديث فى ندوة القاهرة من إثارة الجدل إلى إثارة أزمة، حين قال الدكتور عبد الفتاح الشيخ رئيس جامعة الأزهر «نحن جميعا ساعدنا فى صنع هذا الطاغية، كان يعقد مؤتمرات لتأييد طغيانه ويزعم أنها مؤتمرات إسلامية، وكنا نذهب إليه وبعض وزرائنا شاركوا فى هذه المؤتمرات.. وقد عاد الشيخ الطيب النجار من أحد هذه المؤتمرات ليروى أنه حين حاول ـ بحسن نية ـ أن ينبه قادة العراق إلى ضرورة

التزامهم بالمنهج الإسلامى منعه المسئول عن إدارة المؤتمر ثم همس له بعد الجلسة: إغفر لى أننى قاطعتك، لو تركتك تقول ما كنت تريد قوله فلا أضمن عودتك إلى مصر سليما (!).

ثم تساءل الدكتور عبد الفتاح الشيخ: بعد ذلك ماذا نقول للشباب الآن وقد قال بعضنا قبل ذلك أن صدام حسين هو الذى بعثه الله على رأس المائة عام ليجدد للناس دينهم (!) وماذا نقول ودول الخليج هى التى أعطته المليارات التى إشترى بها السلاح وإغتصب بها الكويت (!) وهل تحرك علماء الإسلام وإجتمعوا ليضعو الإطار الذى يضمن عدم تكرار مثل هذه الفتنة الكبرى.

بعده رفع إمامنا الشيخ محمد الغزالى صوته واضحا ليقول: ـ أنا خدعت بصدام حسين (!).. كنت أعرف أنه بعيد ن الإسلام، ولى كتاب أفضح فيه حقيقة فكره المنحرف، ومع ذلك خدعنى حين قال أنه يريد الدفاع عن الإسلام.. ومن خدعنا بالله إنخدعنا له..!

ثم استطرد: أنا أريد مصالحة عامة فى العالم الإسلامى لأن الأمر يحتاج إلى جمع الشمل، وأن البيئة الإسلامية تسمح بظهور أمثال صدام حسين، هذه أمة فيها نزق سرعان ما تقتتل وسرعان ما تلتئم، هناك بيئة تنبت الذل وبيئة تنبت العز، وكما قال الشاعر: «فى ذلة المظلوم عذر الظالم» فالدكتاتور واحد، ولكن يتراص الناس أصفارا على يمينه فيصير عشرة، ويصير مائة، ويصير مليونا، ويصير عشرة ملايين، وهو واحد.. ولكن الذين حوله إرتضوا وإختاروا أن

يكونوا أصفارا. ولكنى لا أريد أن يلتئم الجرح وأسبابه قائمة، لقد إختفى الإستبداد من أوربا تقريبا لكنه مازال قائما فى البيئة الإسلامية، الأمة الإسلامية فى غيبوبة ولا ندرى متى تصحو منها، والعالم الإسلامى كل حكامه فرديون إلا قلة هم إستثناء، والإستثناء لمنع اللبس، العالم الإسلامى مازالت فيه الكرامة مهدرة، فيه قمم وسفوح، صغار وشموخ، وإذا أرادت هذه الأمة أن تعيش فلابد من الديمقراطية والشورى المطلقة بلا قيود كى لا يكون العالم الإسلامى «مزبلة الحضارات»! والعدالة الإجتماعية حق، لقد كان الخليج غنيا فلم يحسن الإنتفاع بغناه، نحن الآن أنقاض أمة، بقايا ما أكل السبع والكلب، نحن على أعيننا غشاوة، نحن نعيش يومنا ولا نعرف غدنا ولا نفكر فيه. وهذه حال منكرة. فتنة صدام إنتهت لكن ذيولها ستبقى إلى حين، فلنبدأ بتخليص البيئة الإسلامية من جراثيم المتكبرين والطغاة، ولنحولها إلى بيئة للحرية والكرامة..

تحولت الندوة إلى صورة مصغرة لما يجرى، أو ما يجب أن يجرى فى العالم الإسلامى.. مراجعة للنفس، وإعتذار عن أخطاء الفهم والوقوع فى الشرك، وإصرار على تنقية البيئة الإسلامية من جراثيم كامنة فيها تنشر المرض القاتل: الدكتاتورية التى لا تجد دائما قناعا يخفى بشاعتها إلا الإسلام.. وحين يسقط القناع تظهر الوجوه القبيحة التى تسئ إلى الإسلام ولا تخشى يوما لا ينفع فيه مال الأرض جميعا، ولا يشفع فيه سلطان.!

أين حزب الله ؟

فى حديث لمحطة التليفزيون الأمريكية (سى. إن. إن) طرح الرئيس صدام حسين تساؤلا يتردد هو: الله مع من..؟ والشيطان مع من..؟ وأجاب عنه إجابة غاية فى الغرابة!

أهمية السؤال أننا أصبحنا نرى القتلة واللصوص والإرهابيين يصرون على أنهم «حزب الله» وأن سائر من عداهم من المسلمين هم «حزب الشيطان» إلى حد أن المرء كثيرا ما يتصور أن هناك جهة ما، أو عقلا ما، يهمه أن يفسد على المسلمين معايير التمييز، وقواعد الحكم، ليخلطوا بين الخير والشر، إلى أن يأتى يوم يسير فيه المسلمون فى الطريق الممنوع وفقا لقواعد دينهم وهم موقنون أنه الطريق الصواب، وأنه لا صواب إلا هو!

لا يكتفى الرئيس صدام حسين بالطبع يطرح السؤال، ولكنه

يمضى فى الطريق الجديد الذى يسير فيه منذ إحتلاله الكويت بإستخدام مقولات إسلامية للتأثير على العامة ممن يهتزون لمجرد ذكر إسم الله وكلماته ولو فى حديث الضلال دون أن يفرقوا بين الصحيح والباطل فيما يقال، قال صدام حسين: «إن هذه الحرب معركة بين الإيمان والكفر، بين الخير والباطل، بين العدل والإنصاف، وبين الإجحاف والتسلط والعدوان..» وبهذا العزف على الكلمات تصور أن ذلك يكفى لإقناع ـ أو بالأصح لخداع ـ المسلمين، وركوب موجة اليقظة الإسلامية.. يظن أن أحدا لن يفكر هل إغتصاب الكويت هو الحق والخير والعدل والإيمان، وأن تحريرها هو الباطل والكفر والإجحاف والتسلط والعدوان..؟!

ثم ينتقل الرئيس صدام حسين ـ بجرأة على الله وعلى عقول الناس حسابها عند الله شديد ـ فيقول أن له الحق فى القاء البترول لتلويث مياه الخليج لأنه فى حالة «دفاع شرعى عن النفس»..!

حالة دفاع شرعى عن النفس؟!

هل يمكن لعاقل على الأرض أن يقول أن غزو الكويت، وإحتلالها، والإصرار على إغتصابها، وتشريد أهلها، وحرق بترولها، كل ذلك «دفاع شرعى عن النفس»، جيوشه فى أرض خارج حدود العراق، فى بلد عربى لم يكن يوما مصدر عدوان أو تهديد عسكرى، والعكس هو الصحيح، وصواريخه التى يلقيها على الظهران والرياض لمجرد الإرهاب وترويع المدنيين فيها الكفاية لمعرفة

حقيقة نواياه. أين عناصر حالة «الدفاع الشرعى عن النفس» كما يحددها القانون الدولى، أو كما تحددها الشريعة الإسلامية؟ أو كما يقبلها العقل..؟ أم هو مجرد كلام للسذج، «وللإستهلاك المحلى» كما يقول السياسيون؟

وعلى نفس الوتر الإسلامى يمضى الرئيس صدام حسين فى مغالطاته الغريبة فيقول أن الصاروخ «سكود» ليس «سكود» ولكنه أصبح «الحسين» و «العباس». وبعض الناس حساسون من هذا الإسم وذاك لاقترابهما من أحب خلق الله على المسلمين ولأنهم يعرفون أن إسم الحسين يذكرنا بجدنا الذى قاتل الإنحراف والجور بسبعين رجلا فقط، فكيف نحن الذين أصبحنا ملايين الآن لا نقاتل الجور؟

هل هناك مسلم، عاقل، يمكن أن يصدق أن الرئيس صدام حسين هو الإمام الحسين وأنه يقاتل من أجل نفس القضية..؟ هل كان الإمام الحسين يقاتل من أجل أرض إغتصبها؟ وهل قاد جماعته المؤمنة الصابرة من أجل قضية المطالبة بعشرة ملايين دولار وآبار بترول متنازع عليها.. أليس من حقنا أن نعترض على تصوير الإمام الحسين سيد الشهداء على أنه كان مغتصبا، أو طامعا فى امبراطورية، أو قاطع طريق إذا قبلنا القياس الذى يفرضه علينا الرئيس صدام حسين.. ومثل أقوال الرئيس صدام هو ما تتلقفه أجهزة الإعلام المعادية وتنفخ فيه لتبين للعالم كيف أن رموز المسلمين العظام بكل ما

يحيطها من هالة لم يكونوا إلا شرذمة من القراصنة والفوضويين.. وحاشا لله أن يكونوا كذلك.. ثم هل إطلاق اسم «الحسين» على الصاروخ الروسى الصنع «سكود» يجعله صاروخا إسلاميا.. وعقلاء المسلمين يدركون أن الصاروخ لا يكون إسلاميا إلا إذا إنطلق فى قضية عادلة يرضاها المنطق والعقل الإسلامى الرشيد، ولا تكون القضية الباطلة إسلامية بمثل هذا الخلط، والخلل العقلى، والمغالطات المنطقية المكشوفة.

ويقول الرئيس صدام حسين أيضا فى حديثه «إن كل ما تم تدميره فى العراق، والذى سيتدمر لم يتبرع لنا أحد به.. ونحن الذين بنيناه..» فيجعلنا نفزع للفكرة التى تكمن وراء مثل هذه الكلمات، ففى الوقت الذى تدمى فيه قلوبنا للتدمير الذى يلحق بالعراق وجيشه - وهم رصيد للعرب والمسلمين - نرى القائد المسئول عن شعبه وجيشه يتحدث بمثل هذه الإستهانة ولا يعنيه حجم الدمار مادام الثمن قد دفعه وسوف يدفعه الشعب العراقى، وكأنه مفوض من شعبه لتدمير البلد، أو كأنه مالك حر التصرف فى أملاكه الخاصة، وليس من حق أحد أن يحاسبه!

ثم يكشف الرئيس صدام حسين عن حالة «تضخم الذات» التى وصل إليها منذ فترة وجعلته يرى أن «صدام حسين» هو «العراق» وهو «الشعب» و «المستقبل»، فيقول: «العراقيون عندهم حالة توحد بين المواطن والقيادة»!

أليس من واجبنا أن ندعو المسلمين فى أرجاء الأرض إلى صلاة جامعة يبتهلون فيها إلى الله أن يرحم أمة محمد من أمثال هذا الحاكم الذى يرى نفسه هو الأمة، وكلمته إرادتها ويقول بمالم يقله أحد من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقله من البشر إلا من دخلوا التاريخ من أسوأ أبوابه.

وأخيرا يقول الرئيس صدام حسين فى حديثه «أسميناها أم المعارك لأن الحق واضح عن الباطل بما فيه الكفاية، وأننا مؤمنون بأن الله معنا، فهل هناك معركة أخرى أكبر من المعركة التى يكون الله قائدها سبحانه وتعالى من جهة، والشيطان من جهة أخرى..»

أستغفر الله العظيم.

الله سبحانه وتعالى هو قائد معركة إحتلال الكويت، وتشريد أهلها، ونهب ثرواتهم، وحرق آبار بترولها..! والشيطان هو الذى يقود معركة المطالبة بتحرير الكويت واعادة الحقوق إلى أصحابها..؟!

أيها الإسلام.. كم من الجرائم ترتكب بإسمك.

هل يعيد التاريخ نفسه ؟!

هل يمكن أن نصدق أن الرئيس صدام حسين لم يكن يدرك طبيعة الخطر المحيط به وببلده وبالمنطقة العربية. رغم النذر والتحذير..؟ هل يمكن تصديق أنه كان مصدقا لما كان يقوله عن قدرته على الإنتصار على كل هذا الحشد العسكرى الذى لم يسبق له مثيل، أم أنه وصل إلى حالة شعر فيها أنه «سوبر مان» وأنه يمكن أن يظل رجلا واحدا ضد العالم.

مثل هذه الأسئلة تقود إلى أسئلة أخرى مثل: إلى من كان يستند صدام حسين فى موقفه هذا، إلى الإتحاد السوفيتى..؟ إلى قوات عربية خارقة محتشدة إلى جانبه؟ إلى وعد الهى [هو الآخر بأن تكون له الأرض العربية من المحيط إلى الخليج.. كما تدعى اسرائيل بأن الله وعد شعبها بأن يعطى نسله أرض العرب من المحيط إلى النيل..؟!

قد تكون الإجابة عند علماء النفس السياسى بأن هناك طرازا من القادة تكون لديهم «الشخصية السيكوباتية» وهى شخصية بطبيعتها لا تشعر بالخطر، ولا تبالى بالنتائج ولو إنتهت بتدمير ذاتها.

وقد تكون الإجابة أن السلطة المطلقة بما إنها مفسدة مطلقة فبإن من يحكم بلدا بغير معارضة لابد أن ينتهى مثلما إنتهى هتلر. حين جلس فى غرفة عملياته يدير معارك وهمية، وينقل الدبابيس الممثلة لقواته على الخرائط متصورا أن جيوشه مازالت تكتسح وتنتصر حتى فوجئ بقوات الحلفاء تحيط به فى خندقه فلم يجد بدا من أن ينتحر بالرصاص.! ولم يكن واحد من معاونيه يجرؤ على أن يقول له الحقيقة المرة لأن الدكتاتور عادة لا يسمع إلا ما يريد.

وأعتقد أن هناك إجابة أخرى أكثر دقة وواقعية يمكن أن تتوصل إليها إذا قرأت جيدا أهم كتاب صدر فى العالم العربى فى عقد الثمانينات، وهو كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «الإنفجار» عن هزيمة ١٩٦٧، ففى سطور الكتاب وبين السطور سوف تلمس أن جمال عبد الناصر أخطأ خطأين تاريخيين لم يستطع بسببهما إنقاذ نفسه وبلده فى الوقت المناسب عندما وصل عند حافة الهاوية. الخطأ الأول أن الأحداث كانت تتجمع بوضوح أمامه فى إتجاه واحد يؤكد حتمية الحرب، ومع ذلك لم يدركها، وصدق نفسه فيما كان يعلنه من شعارات: «سنقاتل إلى آخر قطرة من دمائنا»، وكان كواحد من أبطال التراجيديا اليونانية القديمة.. بطلا يعرف أنه يسير إلى حتفه

ومع ذلك يسير إليه، ويعرف أن هذه نهايته ومع ذلك لا يفعل شيئا ولا يقاوم بل يستسلم للقدر.! والخطأ الثانى أنه أدار أزمة ٦٧ بنفس أسلوب إدارته لأزمة ١٩٥٦ دون إدراك أن الظروف الدولية والمحلية تغيرت.. وصدام حسين فعل الشئ نفسه.

قبل ٥ يونيو تعددت أمام عبد الناصر النذر تماما كما حدث لصدام حسين، جاءه يوجن بلاك رئيس البنك الدولى السابق ليحذره مما سيحدث، كما جاءه ذو الفقار على بوتو لينذره، وبعث إليه الملك حسين بمعلومات يعرفها جيدا (!) عما سيجرى له ولبلده، ومع ذلك ظل على شعوره أنه أقوى من الجميع. وعدما قرر سحب قوات الطوارىء الدولية أجمع العالم على حتمية الحرب إلا القيادة المصرية فقد رأت فيه قرارا تاريخيا يضاف إلى قائمة إنتصاراتها الخالدة.. بعد ٣٣ سنة جاء الرئيس صدام حسين ليكرر الأخطاء نفسها ويصور لنفسه أن غزوه للكويت هو إنتصاره التاريخى وقادسيته الثانية، بعد الخيبة التى إنتهت بها القادسية الأولى (!).

قبل ٥ يونيو كان الرئيس الأمريكى يعقد إجتماعات لها دلالة لا يخطئها عاقل، ورؤساء أمريكا لا يعملون من أجل التلفزيون (!) وكان يدلى بتصريحات لا يخطئ فهمها أحد وكانت التحركات الإسرائيلية منشورة ومعلنة بينما كان تقدير الموقف فى القيادة المصرية أن القيادة الملهمة التى إنتصرت من قبل سوف تظل تنتصر مهما كانت الظروف (!) وكان آخر تصريحات عبد الناصر فى مانشتات الصحف

«إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلا وسهلا! وإن هذه المعركة نحن إخترنا زمانها ومكانها».

وحين رفعت مصر درجة الإستعداد بين قواتها المسلحة يوم ٢٤ مايو وبدأت الدبابات تسير طوابير فى شوارع القاهرة متجهة إلى الجبهة وسط الأضواء والكاميرات وأغان ملتهبة مثل: «ولا يهمك ياريس م الأمريكان ياريس..» كانت القيادة تشعر أنها إنتصرت وإنتهى الأمر (!) ومن يستعيد قراءة أوامر رئيس الأركان يوم ١٤ مايو يتأكد أن مصر هى التى ستهاجم: رفع دجات الإستعداد فى جميع القوات والأسلحة. إتمام التعبئة العامة. إستكمال الحشد بحرا وبرا. تجهيز الخطط الهجومية والدفاعية. التوزيع الإستراتيجى للقوات. إستكمال الإستطلاع الجوى.. ثم أغانى «قوة ما يغلبها غلاب»! وكان الدوى العالمى فى الصحف والإذاعات وقنوات التلفزيون يضخم من حجم الحشود وعبقرية القيادة..

يقول الأستاذ هيكل فى كتابه حقيقتين غاية فى الأهمية. الأولى أن التهديد بعمل شئ لا يحقق آثاره إلا إذا كان الطرف الآخر مستعدا لتصديق هذا.. نحتاج إلى تأمل هذه الحقيقة التى إنطبقت على تهديدات عبد الناصر لنرى إلى أى مدى تنطبق على تهديدات صدام حسين بالحاق هزيمة بأكبر وأخطر حشد عسكرى عرفه التاريخ. والحقيقة الثانية التى يلفت الأستاذ هيكل نظرنا إليها هى أنه عندما تبدأ المجلات الأمريكية فى تحويل أى واحد أو واحدة فى العالم

الثالث إلى نجم فمعنى ذلك أنه ـ أو أنها ـ لعبة فى أيديهم. وتأملوا كم عدد المرات التى أصبح فيها صدام حسين صورة غلاف المجلات الأمريكية الكبرى، وتهديداته وأنباء حشوده «مضروبة فى ألف» تملأ الصفحات الأولى، تذاع عشرات المرات فى قنوات التليفزيون، وكأنه «هولاكو» أو «جنكيز خان» القادر على إجتياح العالم وتهديد البشرية..

ثم نتعلم درسا من هذا الكتاب العظيم ملخصه أنه حينما يصبح أى طرف من أطراف أى حرب فى التاريخ صفحة مفتوحة أمام خصمه، فإن هذا الطرف يفقد نصف معركته قبل إطلاق رصاصة واحدة، لأن نواياه، وخططه، وحجم قواته، وإتجاهات عملها تصبح معروفة بالكامل قبل بدء العمليات، ومن ثم تنقلب كل الموازين.. وهل لدى أحد شك فى أن كل ما لدى صدام حسين معروف ومحصور ومدروس..؟

هل يعيد التاريخ نفسه..؟

أعتقد أن دوامات الحيرة التى تدفع بأسئلة جديدة كل لحظة سوف تهدأ وتستقر حين نقرأ هذا الكتاب الهام مرتين. مرة لنعرف، ومرة لنتأمل ونفكر ونتعلم، وليت أحدا يهدى هذا الكتاب للرئيس صدام حسين، ربما يلهمه الله القدرة على تفهم حقيقة ما فعل، وليعرف أن نكبة العرب على مدى التاريخ تأتى من قادتهم، وأن العرب يكررون دائما أخطاءهم، ولعله يفيق إلى حقيقة أنه بطل جاء فى غير أوانه..

وطراز من القادة كان يصلح فى هذه المنطقة فى الخمسينات وأوائل الستينات. ولكنه كارثة أن جاء فى التسعينات.!

وإذا كانت نكسة ٦٧ قد أعادتنا مائة عام إلى الوراء. فكم عاما أخرى سنعود إلى الوراء بعد أن تكررت فى ١٩٩١.؟!

من يخسر.. ومن يستفيد؟

بعد مرور ٨ أسابيع من الأزمة التى نتجت عن إجتياح العراق للكويت، كان السؤال هل حقق النظام العراقى أهدافه، وهل سيحققها فى المستقبل القريب أو البعيد..؟ ومن الذى يكسب الآن من هذه الأزمة ومن الذى يخسر..؟

هذا السؤال بالذات كان شاغلى فى كل اللقاءات التى شاركت فيها فى ٤ ولايات أمريكية فضلا عن العاصمة «واشنطن»، وفى كل هذه اللقاءات أتيح لى مناقشة عدد من أساتذة الجامعات والباحثين فى مراكز بحوث متخصصة، كما أتيح لى إجراء حوارات مع مواطنين أمريكيين من مختلف المستويات والثقافات..

وكان التحليل السياسى للموقف من زاوية المصالح أقرب إلى العقلية الأمريكية التى تحسب كل خطوة بمقدار ما تكلف وما تحقق من مكاسب.

خلاصة هذه الحوارات أن الولايات المتحدة حققت حتى الآن مكاسب بالغة، ولابد أن تعترف بأنها مدينة بالشكر للرئيس العراقى صدام حسين لأنه أعطاها الفرصة لتحققها، فقد جاءت خطوته فى التوقيت المناسب تماما من زاوية المصالح الأمريكية.. فى وقت إنتهت فيه الحرب الباردة، وتراجع الإتحاد السوفيتى خطوة إلى الخلف، ونفض يده عن كثير من المشاكل المحلية، وتخلى عن أوروبا الشرقية، وسحب قواته وصواريخه، وأصبحت مشكلته الإقتصادية لها الأولوية عن كل ما عداها من مشاكل العالم.. فى هذا الوقت بالذات كانت الولايات المتحدة محتاجة إلى تأكيد حقائق بعينها :

كانت الولايات المتحدة محتاجة إلى تأكيد أن العالم الآن قد تغير عما كان عليه منذ سنوات، ولم تعد فيه غير قوة واحدة، وكل حديث عن قوى أخرى هو حديث عن المستقبل المجهول وإحتمالاته، فأوروبا لم تتوحد بعد، وألمانيا لم تصل بوحدتها إلى أن تصبح قوة سياسية عالمية حاكمة، واليابان بكل قوتها الإقتصادية لابد أن تعترف بأنها محتاجة إلى المساندة الأمريكية لكى يصل إليها البترول الذى يمثل شريان الحياة بالنسبة لها، وجاءت خطوة الرئيس العراقى لتعطى أمريكا هذه الفرصة.

وكانت الولايات المتحدة تريد موقفا عمليا محددا شديد الصعوبة، لكى تختبر فيه مدى جدية الأيديولوجية السوفيتية الجديدة، وإلى أى

حد يمكن أن يقف الإتحاد السوفيتى معهافى خندق واحد ويعمل معها كتفا إلى كتف فى نفس الخندق، ولو كان ذلك على حساب أصدقائه التقليديين.

حتى فى لحظة الغزو العراقى للكويت كان العملاقان يعملان معا، وفقا لما تكشف مؤخرا فى واشنطن، ففى يوم أول أغسطس كان وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر فى أيركوتسك فى سيبيريا للقاء نظيره السوفيتى إدوارد شيفارنادزه، وفى منتصف النهار إنتهز فرصة وجوده مع شيفرنادزه وحدهما فى سيارة ليموزين وأبلغه أن المخابرات الأمريكية تراقب الحشود العراقية على الحدود الكويتية، وأنها تتوقع غزوا عراقيا وشيكا، وقال له: «إننا نرجو أن تحاول إيقاف هؤلاء الناس»، لكن شيفرنادزه أكد له أن الرئيس العراقى، كصديق قديم للسوفييت، لن يقوم بأى غزو، وأنه أبلغهم بذلك.. وفى يوم ٢ أغسطس الساعة ٧,٤٥ صباحا فى سيبيريا، إتصل وكيل وزارة الخارجية الأمريكية من واشنطن بوزير خارجيته جيمس بيكر، مستخدما الشفرة فى الحديث ليبلغه أن المخابرات الأمريكية أخطرته الآن بأن الغزو سيتم خلال ساعات.. وقام بيكر مرة ثانية بإخطار شيفرنادزه. لكن الوزير السوفيتى أجابه بما يفيد بأن الرئيس صدام حسين لن يهاجم.. وحين بدأت القوات العراقية عملية الغزو وإقتحمت الحدود سارعت واشنطن فى ذات اللحظة بإخطار بيكر وكان على وشك الظهور مع شيفرنادزه فى مؤتمر صحفى، لكن

شيفرنادزه قال له: «أننا لم نسمع قط هذه الأنباء وليس لدينا معلومات حتى الآن» وطلب من كبار مساعديه بحث الأمر على وجه السرعة، وتأجل المؤتمر الصحفى، وغادر بيكر الإتحاد السوفيتى إلى منغوليا، ولكنه ترك مساعده لشئون التخطيط السياسى، ومن منغوليا عاد بيكر ـ بعد أن قطع زيارته لها ـ إلى الإتحاد السوفيتى بتعليمات من الرئيس بوش.. فى نفس اليوم كانت الولايات المتحدة قد بدأت فى إرسال السفن لمحاصرة العراق إقتصاديا، وكان مجلس الأمن قد إتخذ قرارا بمطالبة العراق بالإنسحاب. وخلال زيارة بيكر للإتحاد السوفيتى أبلغ السوفييت بخطة بوش لإرسال القوات الأمريكية لحماية السعودية، كما أخطره بما لدى المخابرات الأمريكية من معلومات عن تحركات وإستعدادات العراق العسكرية.. وإتفقا على إستخدام أشد عبارات الإدانة للغزو العراقى «لكى يظهر أمام العالم كيف أننا نقف معا موقفا واحدا» على حد تعبير الوزير الأمريكى جيمس بيكر!

هكذا كسبت الولايات المتحدة نقطة بالغة الأهمية، وهى أنها جعلت الإتحاد السوفيتى يعمل معها ضد صدام حسين..والفضل للرئيس العراقى..!

وكسبت الولايات المتحدة إقتصاديا، فى ظروف كان إقتصادها يحتاج إلى دفعة قوية.. العجز فى الميزانية، والعجز الهائل فى ميزان المدفوعات، وركود صناعة السلاح، وإنتهاء التوتر فى أوروبا بما يعنى عودة القوات الأمريكية.. جاءت الأزمة الجديدة لتحرك أرصدة

البترول الراكدة لتمويل العمليات العسكرية، فتحركت آلة الإقتصاد الأمريكى تحركا ملحوظا وعلى حد تعبير أستاذ فى العلوم الإقتصادية والسياسية فى إحدى الجامعات الأمريكية. أصبحت الولايات المتحدة تحقق التوازن فى ميزان المدفوعات عن طريق تصدير صناعة جديدة هى صناعة «الحماية». فهناك ٢٥٠ ألف أمريكى يعيشون فى الصحراء على بعد آلاف الأميال، يحتاجون إلى طعام وملابس وخيام وأجهزة تكييف وغسالات وثلاجات وسيارات وأحذية وكوكاكولا، ولبان، وشيكولوته..! وجاء الفرج للشركات لكى تعمل بقوة لتموين «أبنائنا الصغار الذين يجب أن يعيشوا فى أفضل ظروف ممكنة».

يضاف إلى ذلك ما يلمسه الزائر لولاية «لويزيانا» حيث تتركز آبار البترول من إنتعاش ملحوظ، لم يتردد أحد المسئولين فيها عن أن يقول لى بأن هذه أفضل أيام «لويزيانا»، فبعد أن أغلقت آبار البترول منذ إنخفاض أسعاره، عادت الآن للعمل من جديد بعد إرتفاع الأسعار بسبب الأزمة مما أدى لإنتعاش سوق البترول الأمريكية، وسوق البترول السوفيتية أيضا.

هكذا إستطاع الرئيس العراقى، بضربة واحدة، أن يحقق أهدافا أمريكية متعددة، يستحق عليها بحق أن تقدم له أمريكا ما تعبر به عن عرفان بالجميل، ومع إستمرار الأزمة وقتا أطول فإن المكاسب على الجانب الأمريكى تضاعفت. ماذا كسب العراق من هذه الخطوة التى

لم يسبق لها مثيل.. خسائر.. خسائر.. ثم كلام رنان وضجيج لا يمكن حسابه.. توقف ضخ البترول من العراق والكويت.. توقفت عملية التعمير الهائلة التى كان العراق قد بدأها لبناء ماتهدم خلال حربه مع إيران.. هربت الأيدى العاملة من العراق بما يعنى توقف صناعات وخدمات أساسية، توجيه البقية الباقية من الإقتصاد العراقى للمجهود الحربى.. بقاء العراق فى حالة إستنفار دائم، قد يكون له آثاره الإيجابية فى توحيد الرأى العام خلف قيادته بدافع الشعور بالخطر، ولكن مع الوقت لابد أن يتحول الرأى العام نتيجة إدراكه أن هذا الخطر بسبب سلوك قيادته غير الرشيد ومسئولية قيادته عن كل ما يلقاه من هوان، كما خسرت القيادة العراقية التعاطف الشعبى العربى معها ومع قضاياها، وفقدت مصداقيتها، وكشفت عن وجه قبيح كان مستترا وراء أقنعة الشعارات القومية.. من الذى يكسب.. ومن يخسر؟ هذا هو السؤال الذى يطرح فى كل دول العالم قبل إتخاذ أى قرار، أو الإقدام على أى خطوة، ولكنه لا يطرح أبدا فى العالم العربى، لأنه عالم، فيما يبدو، لم تعد تهمه الخسائر، بعد أن إعتاد فى السنوات الماضية على الخسائر والقفزات غير المحسوبة.

حسابات خاطئة.. ونتائج مدمرة

أخطأ الرئيس صدام حسين قراءة الأحداث المتلاحقة، بما تحميه من أخطار بالغة على الحاضر والمستقبل، مثلما أقام تقديراته للموقف منذ البداية وحتى النهاية على حسابات خاطئة، وهناك أسباب عديدة جعلته لا يرى الأمور على حقيقتها وبحجمها الطبيعى.. يرجع بعضها إلى طبيعة شخصيته، وبعضها الآخر إلى الضغط العصبى الذى عاش فيه خلال الأزمه وجعله لا يرى الأمور على حقيقتها وبحجمها الطبيعى وأولها أنه محاصر عالميا وعربيا وعراقيا، وعلى العكس من ذلك بلغ به خداع النفس والحياة فى الوهم أن رأى أنه إنتصر على العالمين، وأقام الدنيا وحده وانه بذلك دخل التاريخ كواحد من بنى هاشم سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام! وإن كانت حكاية نسبه الشريف هذا حكاية أخرى من حكايات التزييف والخداع.

أخطأ الرئيس صدام حسين فهم نداء مبارك الأخير له بما فيه من إشارات بالغة الخطورة لم يلتقطها.. كما أخطأ فى فهم إعلان الولايات المتحدة التعبئة العامة وإستدعاء قوات الإحتياطى، وما سبق هذا القرار من إجراءات الحشد العسكرى والسياسى آخرها زيادة القوات الفرنسية فى الخليج وإجتماع وزراء الخارجية والدفاع فى أوروبا وإتفاقهم على سياسة موحدة، وبذلك توشك مرحلة الإستعداد على النهاية بما فيها إزدياد قوة الرأى العام الأمريكى والدولى المؤيد لموقف الرئيس بوش بإستخدام القوة العسكرية ضد العراق.

أخطأ الرئيس صدام حسين أيضا فى حسابه لورقة الرهائن الغربيين فى العراق، وتصور أن ما حدث فى إيران عام ١٩٨٢ قابل للتكرار حين إحتفظت إيران بإثنين وخمسين من الرهائن الأمريكيين فإهتزت إدارة الرئيس كارتر وجعلت الأمر يبدو وكأن الولايات المتحدة ذاتها هى التى أصبحت رهينة فى يد الإيرانيين.. ومفهوم طبعا أن حياة الفرد الأمريكى والأوروبى لها قيمة تستحق أن تهتز من أجلها دولة، لكن الزمن إختلف.. بوش ليس كارتر.. والعراق ليس إيران.. والإتحاد السوفيتى الذى كان يساند إيران فى هذه اللعبة فى ظل الحرب الباردة بين العملاقين ويهمه أن يساعد على توريط الولايات المتحدة وهزيمتها سياسيا فى أزمة الرهائن.. له دور مختلف فى الأزمة.. الإتحاد السوفيتى أعلن إدانة العدوان العراقى على

الكويت، ووافق على فرض العقوبات الإقتصادية، وقرر منذ البداية حظر تصدير الأسلحة إلى العراق.. ثم إن إدارة بوش واجهت أزمة إحتجاز الدبلوماسيين والعاملين الأمريكيين والأوروبيين واليابانيين.. إلخ كرهائن فى قبضة صدام حسين ورقة للضغط بأعصاب هادئة نسبيا وسارعت بمناشدة الأمريكيين بأن يهيئوا أنفسهم للتضحية، دون أن تبدو فى الأفق أية بادرة تشير إلى أن هذا الموضوع مهما تصاعد يمكن أن يوجه غضب الأمريكيين إلى بوش، أو يهدد مستقبله السياسى أو مستقبل حزبه، بل إن الإتجاه فى الرأى الأمريكى تحول فأصبح يطالب بألا يتحكم موضوع الرهائن فى السياسة الأمريكية، لأن الرهائن ضحايا سياسة صدام حسين، والغضب الأمريكى يجب أن يوجه إليه أساسا، وأن القوات الأمريكية المرابطة فى صحراء السعودية أولى بالرعاية.

وقد ساعد على ذلك الموقف الجديد مؤتمرات وحلقات بحث عديدة تمت فى أمريكا فى الأعوام الماضية لتحديد أنسب الوسائل لمواجهة عمليات إختطاف الرعايا الأمريكيين كرهائن بعد تزايد عمليات الإرهاب الموجهة إليهم. هل من الأجدى التسليم بمطالب الإرهابيين لإنقاذ حياة الرهائن أم أن إتباع هذه السياسة دائما سيمثل دعوة للإرهاب بمختلف صوره للتوسع فى إستخدام سلاح الرهائن وتصبح كرامة وهيبة القوة العظمى فى العالم فى يد حفنة من المغامرين.. وفى العالم أكثر من مليونى أمريكى منتشرون فى مختلف الأنحاء هم

جميعا صيد سهل لمثل هذه المغامرات. وتبلورت المناقشات عن حقيقة أن هيبة أمريكا ومصالحها وسياساتها يجب أن تغلب فى معظم الأحيان، وأن التضحية قد تكون ضرورية لكى يفقد الإرهاب أهم أسلحته، وهناك مواقف لابد أن تكون المصالح العليا للدولة فوق أى إعتبار آخر.

أخطأ الرئيس صدام حسين أيضا حين أقام حساباته على أن الوقت لصالحه، لأنه لن يستطيع هو وقواته العيش فى حالة إستنفار كامل لفترة طويلة، وكان لابد أن يصيبهما الإرهاق.. وأخطأ حين تصور أن شيئا لن يحدث.. وهذه هى الغلطة التى تعطى للقوة الأمريكية عنصر المفاجأة، بعد أن إستكملت عنصر الحشد العسكرى والسياسى.

أخطأ الرئيس صدام حسين أيضا حين أقام حساباته على أن مجرد تحدى الولايات المتحدة يكسبه بطولة وشعبية فى العالم العربى ويجعل منه بطلا قوميا تاريخيا، وتصور أنه يمثل «ناصرية جديدة» ولم يضع فى إعتباره إختلاف الزمان والظروف، فقد جاء عبد الناصر فى ظروف إشتداد الصراع بين العملاقين وحاول الإستفادة من ذلك، كما حاول أن يلعب لعبة التوازن، وإن كان فى النهاية لم يحقق أحلامه، الآن يظهر الرئيس صدام حسين على مسرح دولى مختلف، وفى ظروف إقليمية مختلفة، ولو أن عبد الناصر عاد الآن لكان عبد الناصر جديدا غير الذى كان فى الخمسينات والستينات، لأنه لابد أن يكون مستوعبا للتغيرات التى جاءت بها رياح الثمانينات.

أخطأ أيضا الرئيس صدام فى حساباته إذ تصور أن كل الحشود الأمريكية فى البر والخليج، والتى لم يسبق لها مثيل يمكن أن تكون مجرد مظاهرة لشن حرب نفسية عليه، لأن القوات الأمريكية فى السعودية كانت كلها قوات قتالية، مدربة على حروب الصحراء ولم تكن أمريكا محتاجة لكل هذا الكم الهائل من القوات والسلاح إذا كان الهدف مجرد التأثير السياسى أو النفسى.

لقد ساعد العرب الرئيس صدام حسين على تكوين جيش قوى ليكون درعا للعرب لحمايتهم من مخاطر عديدة تحيط بهم، ولم يكن يطوف بخيال أحد منهم للحظة أن يتحول هذا الجيش إلى قوة لتهديد العالم العربى إلى حد أن يقوم بما لم يجرؤ على القيام به أشد أعدائها. وقد أخطأ أيضا لأنه لم يضع فى حساباته تأثير ذلك على الجيش العراقى ذاته. الذى كان مطلوبا منه أن يقاتل ويموت فى حرب ليست عادلة، وبغير قضية مقنعة، ويوجه سلاحه إلى أشقائه دون أن يعتدى عليه أحد منهم.

ليس غريبا فى عالمنا العربى أن يصل زعيم إلى درجة من الشعور بالقوة تعميه عن رؤية الأمور بأحجامها الصحيحة، ويصل به الغرور إلى حد إرتكاب أخطاء قاتلة. ولا يدفع وحده الثمن. ولكن يدفعه شعبه والشعوب العربية كلها.. وما يعانيه العرب من نكبات ونكسات ليست إلا آثاراً لمثل هذه الأخطاء.

ومع ذلك فقد ظل باب الأمل مفتوحا لفترة طويلة لو أراد صدام حسين إنقاذ «الكيان» و «الإنسان». لكنه لم يرد وظل فى غيبوبته، وإن بقى أمل فى أن يعود إلى صوابه لإنقاذ ما تبقى من شعبه وأرضه وكرامته وسيادته.. بعد كل ما جرى وكان..!

هل جاء وقت المحاكمة..؟

منذ يوم ٢ أغسطس، وفور إعتداء الرئيس صدام حسين على دولة الكويت. ظهرت دعوة لمحاكمة الرئيس العراقى، وإختلف النظر فى نوع وطبيعة هذه المحاكمة كما إختلف حول أسس إختيار القضاة الذين يمكن أن يتولوا هذه المحاكمة وإصدار الأحكام ونوعية هذه الأحكام وسندها التاريخى والفقهى والقانونى.

وإن كانت محاكمات نورمبرج هى أشهر المحاكمات فى التاريخ إلا أن تكرارها يحتاج إلى إعادة نظر، فقد سارع الحلفاء فى أعقاب إنتهاء الحرب العالمية الثانية إلى عقد هذه المحاكمة فى مدينة «نورمبرج» الألمانية واستغرقت ١١ شهرا من نوفمبر ١٩٤٥ حتى أكتوبر ١٩٤٦ أمام «المحكمة العسكرية الدولية» التى تألفت بإتفاق سلطات دول الحلفاء الأربع الكبرى من أربعة قضاة أولهم أمريكى، والثانى

بريطانى والثالث روسى والرابع فرنسى، كما تألفت هيئة الإدعاء من أربعة يمثلون نفس الدول، وكانت قائمة الإتهامات حافلة تشمل «التآمر على شن حرب عدوانية واقتراف جرائم ضد السلام، وإرتكاب جرائم حرب مثل: القتل، وإساءة معاملة المدنيين وأسرى الحرب، وتهجير المدنيين لأعمال السخرة، وقتل الرهائن، وجرائم أخرى ضد الإنسانية تشمل قتل أو إساءة معاملة المعارضين السياسيين.. إلخ.

السابقة التاريخية والسياسية فى هذه المحاكمات أن الإتهام وجه إلى أشخاص معنويين، مثل مجلس الوزراء فى ألمانيا النازية، والقيادة العامة للجيش النازى وأركان حربه، والتنظيمات النازية لجيش العاصفة والجستابو وغيرها. كما وجهت الإتهامات إلى أشخاص طبيعيين هم ٢١ من زعماء الحكومة النازية سياسيين وعسكريين كان من بينهم جورنج، وهيس، وروز نبرج، وشاخت، إلخ.

دخلت هذه المحاكمة تاريخ الفقه والقانون الجنائى الدولى، وأصبحت جزءا من مفاهيم الإتفاقات الدولية الخاصة بحروب الإعتداء أو جرائم الحرب والجرائم ضد السلام، وإن كان الفقه فى القانون الدولى مازال يثير الجدل فيمن يخضع لمثل هذه المحاكمات: رؤساء الدول المسئولون عن هذه الجرائم وحدهم، أم أعوانهم ومساعدوهم أيضا بإعتبارهم شركاء فى الجريمة، ولكن بعد أن قامت الأمم المتحدة عام ١٩٤٦ بتشكيل لجنة لإستخلاص المبادئ القانونية

التى قامت عليها هذه المحاكمة، وبعد أن كلفت لجنة القانون الدولى بالأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ بوضع تقرير عن الجرائم ضد السلام أو ضد الإنسانية وصياغتها فى قواعد عامة، أصبحت السابقة مبدأ يمكن تكراره، وإن كان فقهاء القانون الدولى يضيفون إلى ذلك شرطا هو أن تتم هذه المحاكمات أمام محكمة محايدة. وليست من الدول المشاركة فى الحرب، حتى لايكون الطعن عليها بأنها إنتقام المنتصرين.

كل هذه الحقائق معروفة فى كتب القانون الدولى والفقه، وفى الموسوعات وكتب التاريخ، والأهم من وقائعها أن هذه المحاكمة تحولت فى الضمير الإنسانى على حد تعبير «نيقولاى باجانوف» نائب رئيس النيابة العامة السوفيتى فى عام ١٩٨٥، إلى «رمز لمعاقبة الذين يقترفون جرائم ضد السلم والبشرية»، وأنها أرست مبدأ جديدا هو واجب الحرص على فضح كل من يرتكب جرائم حرب فى أى وقت وأى مكان.. ليدرك جميع المسئولين فى كل زمان ومكان أن هذه الجرائم البشعة لن تمر بغير عقاب ولن تسقط بمضى المدة، ولن يصلح الخداع السياسى فى تجميلها، أو إستخدام الإعلام للتضليل وتغطية هذه الجرائم.

ترددت دعوات للإعداد لمحاكمة من هذا الطراز لكل من شارك فى مسئولية الإعتداء على حرمة الأرض والإنسان والعرض فى الكويت، وتحمس كثيرون لجمع الأدلة على الوقائع والجرائم التى إرتكبت

تفصيلا فى حق المدنيين وأملاكهم من أبناء الشعب الكويتى، بالإضافة إلى جرائم الإرهاب التى إستهدفت الإعتداء على المدنيين فى أنحاء متفرقة من دول العالم بإدعاء أن ذلك «جهاد فى سبيل الله»، يشنه المسلمون على الكفار من المدنيين والآمنين والعزل الذين لا شأن لهم بالحرب ولا بالسياسة.!

ولكن المثقفين ـ كعادتهم ـ لا يتفقون على رأى واحد.. فيطرح بعضهم صيغة «محكمة برتراند راسل» التى دعا إليها الفيلسوف البريطانى الكبير، وعقدت جلساتها فى «استكهولم» عاصمة السويد فى ٢ مايو ١٩٦٧ ورأس جلساتها المفكر الفرنسى المعروف جان بول سارتر وأسموها «محكمة جرائم الحرب الدولية الشعبية» وكان المتهم أمامها هو الرئيس الأمريكى جونسون، والتهمة هى إرتكاب جرائم حرب ضد الشعب الفيتنامى. وإلقاء الأكاذيب «كسيل من المطر» لتغطية وتبرير هذه الجرائم على الشعب الأمريكى وشعوب العالم، وطالب راسل هذه المحكمة بتحقيق كل واقعة حتى تتأكد فكرة «مقاومة المجرمين».. وكانت المحاكمة فى حقيقتها «محاكمة أخلاقية وسياسية» لأن القضاة الأربعة فيها كانوا من الفلاسفة، والشخصيات الدولية العامة: فيلسوف بريطانى، وآخر فرنسى، ومؤرخ يوجسلافى ورئيس جمهورية مكسيكى، وشهود أمريكيون، وضحايا آسيويون، ولم يكن فيها قفص إتهام، ولا كان المتهم حاضرا، ولذلك وضعت سابقة لنوع آخر من المحاكمات هى «محاكم الضمير الإنسانى».

وأدى حكم هذه المحكمة بإدانة العدوان الأمريكى إلى تكوين «ضمير إنسانى دائم» لتعقب جرائم الحرب إينما تكون، فجاءت لجنة تضم خمسة من رجال «مؤسسة برتراند راسل للسلام بلندن» إلى منطقة الشرق الأوسط للتحقيق فى جرائم الحرب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين فى أراضيهم المحتلة..

ماذا يمكن القول عن إغتصاب دولة الكويت، وإرتكاب جرائم بشعة على شعبها، وتشريدهم، وحرق بترولهم، ونهب ثرواتهم، وهدم مبانيهم المدنية، وإستخدام الأجانب دروعا بشرية، وتعذيب الأسرى، ووضع المدنيين داخل أهداف عسكرية.. إلخ.

ألا ينطبق على «حالة الكويت» القول بأن جرائم الحرب فيها قد إرتكبت وإستكملت أركانها، وتوافرت أيضا جريمة «إلقاء الأكاذيب كسيل المطر» يرددها «المغتصبون»، ألا ينطبق عليها أيضا هدف «حماية الشعب العراقى ذاته من نتائج العدوان على الدولة الجارة الصغيرة».. ألا ينطبق عليها القول بأنها لم تكن إلا الخطوة الأولى لإقامة امبراطورية همجية واسعة قائمة على الإبادة والتخريب؛ والجرائم الوحشية وإذلال الشعوب لتحقيق السيطرة الإجرامية..»..؟!

هل آن الأوان لفتح الملف، وإعداد عريضة الإتهام، وإفساح المجال أمام كافة الأصوات التى تريد الدفاع عن غزو الرئيس صدام حسين للكويت وما فعله بها لكى تقول كل ما عندها، أمام قضاة

عدول، محايدين «إن أمكن»، أم علينا بالإنتظار حتما بعد أن تلاشى دخان الحرائق وتحولت الكويت إلى رماد. ثم إكتفينا بالبكاء على أطلالها كما تعودنا أن نبكى على كل ما ضاع منا وكان فى أيدينا..؟!

عريضة إتهام..!

انشغل الرأى العام فى مصر وخارجها، بكيفية حساب الرئيس صدام حسين على الجريمة التى إرتكبها، والتى تسببت فى كارثة لم يسبق لها مثيل للعالم العربى. حتى يكون عبرة لمن يأتى بعده من القادة الذين تصور لهم أطماعهم أن بإمكانهم أن يدمروا ما حولهم دون أن يخسروا شيئا، مادامت مقاييس الربح والخسارة عندهم مقاييس شخصية، ولا يعنيهم ما يصيب شعوبهم وشعوب المنطقة من خسائر يصعب، وقد يستحيل، تعويضها.. وهذه قضية بالغة الأهمية لتصفية أوضاع الحاضر، وحماية المستقبل.

كان مؤشرا له دلالته أن تكون المبادرة من إحدى الجماعات التى تضم عددا من المثقفين والشباب والتى يقودها الدكتور محمد شعلان صاحب الدراسات المعروفة فى علم النفس السياسى، فتعقد جلسة لمحاكمة الرئيس صدام حسين يحتشد فيها جمع من الصفوة والعامة

على السواء، تكونت منهم هيئة المحكمة، وهيئة المحلفين، وهيئة الدفاع، وهيئة الإتهام، وإحتدمت الجلسة وحفلت بمناقشات تعكس جو الحرية، ومدى إتساع دائرة الحنق على الجريمة ومرتكبيها.

وكان مؤشرا آخر أن يجمع صفوة شيوخنا الأفاضل الذين كرسوا حياتهم لإعلاء كلمة الله ـ من أمثال الشيخ محمد الغزالى، والدكتور محمد السيد طنطاوى، والدكتور عبدالمنعم النمر، والدكتور أحمد عمر هاشم، وغيرهم كثير لبيان حكم الشريعة فيما فعله الرئيس صدام حسين فى الكويت محتميا وراء ستار كاذب من الشريعة، والشريعة براء من كل فعل فيه ظلم، وإعتداء على حقوق العباد، وإشاعة الإغتصاب والدمار فى أرض المسلمين.

كذلك كان موشرا بالغ الدلالة أن تكتمل صياغة قرار الإتهام بإحالة الرئيس صدام حسين إلى محكمة خاصة بمجرمى الحرب على نحو ما فعل الدكتور محيى الدين عشماوى الخبير فى القانون الدولى، وعضو مؤتمر جنيف الدبلوماسى لتطوير القانون الدولى المطبق فى المنازعات المسلحة. وبدأه بتحديد «واقعة الجريمة» بأنه بتاريخ الثانى من أغسطس ١٩٩٠ شن الرئيس صدام حسين بصفته رئيسا للعراق وقائدا عاما لقواته المسلحة هجوما مسلحا ضد دولة الكويت وأراضيها وشعبها، وإحتل بذلك جميع أراضيها بهدف الإستيلاء عليها وضمها بالقوة، منتهكا بذلك قواعد القانون الدولى التى تحرم إستخدام القوة المسلحة فى غير حالة الدفاع الشرعى،

ومخالفا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة التى تحرم إستخدام القوة أو التهديد بإستخدامها ضد سلامة الأراضى، أو الإستقلال السياسى لأية دولة، أو على أى وجه، لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة، ومنتهكا لأحكام الشريعة الإسلامية التى تحرم العدوان، وتحمى دار الإسلام وتحرم الظلم، وتحترم حقوق الإنسان فى الحياة، وتأمر بالقصاص فى حالات القتل، والتخريب، والتدمير، وتعريض أمن البلاد والعباد لأخطار العدوان.

قائمة الإتهام مليئة بالجرائم التى يمكن أن تكون أساسا جديا لهذه المحكمة.

ومبادئ القانون الدولى أقرت المسئولية الدولية للقادة الذين يبدأون بإشعال نار الحرب، وإعتبارهم مجرمى حرب، ومذنبين فى جريمة إشعال حرب الإعتداء.

وميثاق الأمم المتحدة يبدأ فى مقدمته بالنص على إنقاذ الأجيال من ويلات الحروب، وفى مادته الأولى إلتزام بأن يتضافر المجتمع الدولى على قمع أعمال العدوان، وفى مادته الثانية التزام آخر للدول بفض منازعاتها بالوسائل السلمية، وتحريم إستخدام القوة أو التهديد بإستخدامها، وقد أصبح هذا الإلتزام مبدأ قانونيا يتعرض من يخالفه للمسئولية الجنائية الدولية ولتوقيع العقوبات عليه بإقرار وتضامن جميع أعضاء الأمم المتحدة.

تقوم «عريضة الإتهام» على تأكيد المبدأ القانونى المعروف: أن

الخطأ لا يرتب حقا، والحرب خطأ جسيم فلا يعطى للدولة التى تشنها حق إحتلال أراضى دولة أخرى، وعلى «نظرية البطلان» ومؤداها أن ما بنى على باطل فهو باطل، فالحرب عمل باطل وغير مشروع، وكل ما يبنى على الحرب من إحتلال الأراضى وتدمير أرض الغير باطل وغير مشروع. وإن «العدوان لا يولد حقوقا ولا ثمارا للمعتدى».

وللجمعية العمومية للأمم المتحدة قرار أصدرته فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٦ يقرر مبدأ المسئولية الجنائية الدولية عن إستعمال القوة غير المشروع وما يترتب عليه من إحتلال غير مشروع. وهذا القرار يمكن أن يكون الأساس لأى محاكمة قادمة.

فى عريضة الإتهام البالغة الدقة التى صاغها خبير القانون الدولى الدكتور محيى الدين عشماوى استفاضة فى شرح جريمة الإعلان والشروع فى ضم أراضى الكويت المحتلة. وهى جريمة من جرائم الحرب، بقدر ما هى جريمة ضد السلامة الإقليمية والسيادة للدولة المحتلة يستوجب مسئولية مرتكبها وفقا للمبدأ المستقر منذ صدور لوائح لاهاى بقواعد الحرب البرية لسنتى ١٨٩٩ و ١٩٠٧ التى قررت أن دولة الإحتلال لا يجوز لها التعرض للنظام السياسى والإدارى والتشريعى لهذه الأراضى.

وما يعنينى الآن هو أن أشير إلى الظاهرة فى ذاتها التى تؤكد أن الضمائر الحية، والعقول المستنيرة، وكبار علماء الشريعة المتخصصين

رس دوى القدر والعلم والمكانة كلهم متفقون على الإدانة والمطالبة بالحساب حتى لا تمر جريمة دون عقاب، ويكون ذلك عبرة للأجيال القادمة بالعمل على حماية المستقبل العربى من تكرار هذه الجريمة، لأنها جريمة قابلة للتكرار مادام الوطن العربى متخلفا وبعيدا عن قيم الحضارة الحقيقية، وتسمح تربته بظهور دكتاتور دموى لا يرعى للإنسانية والإخوة حرمة.

ثم كم يحز فى النفس أن يكون العراق قوة إحتلال، وتكون الكويت وطنا محتلا.. وكم يحز فى النفس أكثر أنه لم يكن فى العالم من يرتكب مثل هذه الجرائم الجنائية الدولية إلا إسرائيل، فأصبحت العراق بقيادة الرئيس صدام حسين تنافس إسرائيل فى هذا المجال.. وأصبح العرب الآن لا يعرفون كيف يمكن معايشة هذا الواقع المر، هل بالمطالبة بحساب قادة إسرائيل عن الجرائم التى يرتكبونها فى حق الوطن والمواطن الفلسطينى وإغماض العين عما يرتكبه الرئيس صدام حسين من جرائم فى حق الوطن والمواطن الكويتى، أم الإنسياق مع منطق المضللين الذين يريدوننا أن نقبل بأن عدوان الشقيق ليس كعدوان العدو، والعدوان فى الحقيقة هو العدوان، وهو من الشقيق أكثر إيذاء وإيلاما.. أم نسكت عن جرائم إسرائيل بمنطق أنه مادام الشقيق يفعل ذلك فكيف نلوم العدو؟.. أم نحكم على الإثنين بقانون واحد فنجد فى قفص الإتهام إثنين أحدهما منا ويدعى قيادتنا، ويتساوى الرئيس صدام حسين مع

جلادى إسرائيل، وتتساوى العراق بإسرائيل، ويكون العرب ضحايا الإثنين فى زمن واحد..؟!

أليست هذه مأساة تدمى القلوب، وتدمر معان وأحلاما جميلة عاش عيها العرب زمنا طويلا..؟!

محاولة لفهم ما جرى..!

قد يستغرق الأمر عشرات السنين لينكشف المستور والخفى حول الملابسات والأسباب والدوافع الحقيقية التى جعلت صدام حسين يقود جيشه وشعبه إلى الهلاك، ويدفع جميع الدول العربية إلى هذا المأزق الغريب. ولكن ما هو ظاهر حتى الآن يكفى لمحاولة أولية لفهم ما جرى، بحثا عما يجب عمله لضمان عدم تكراره مرة أخرى.

لو تركنا للحظة ما فعله بالكويت وشعبها، هل سمعتم عن زعيم يقتل شعبه بالنابالم والغازات السامة والقنابل الفسفورية والعنقودية كما فعل صدام حُسين بعد إنتهاء المعارك مع قوات التحالف..؟ هل سمعتم عن قائد ملهم مثله قتل ٢٠ ألفا من أبناء شعبه العزيز فى شهر واحد، بعد أن جر على بلده الخراب، وجعله أنقاضا، وبدد ثروته الطائلة فى مغامرة لفرض الزعامة، ومع ذلك فمازال حتى هذه

اللحظة يتحدث عن دوره التاريخى كمبعوث العناية الإلهية للعرب برسالة خالدة، ومازال المنافقون حوله، وسط الخراب والدمار، يرددون دون خجل أنه بفضل زعامته التاريخية التى جاءت على موعد مع القدر إستطاع أن يحقق المجد والإنتصار لهذا الجيل وللأجيال القادمة. (!)

كيف إستطاع مثل صدام حسين أن يستمر ممسكا بمصير شعبه طوال ١٢ عاما كاملة؟ هناك مشاهد صغيرة إذا جمعناها فى صورة واحدة فسوف نجد الإجابة المؤلمة.

خلال الأيام الماضية توقفت الصحف العالمية عند لحظة ذات دلالة. ففى ذات الوقت الذى كان فيه الرئيس الأمريكى جورج بوش يذيع بيانه الرسمى بأن الكويت تحررت وقوات التحالف إنتصرت وعشرات الآلاف من الجنود العراقيين استسلموا، كان راديو بغداد يفتتح إذاعته بصوت قوى مجلجل يقول: «هنا بغداد.. صوت العزة والكرامة.. صوت القوة والعدالة.. من بغداد المنتصرة.. من بغداد مقبرة الغزاة.. صباح الخير!!» ثم أعقب ذلك فاصلا من الموسيقى العسكرية الحماسية وأغانى النصر.. و«أنت حبيبنا يا صدام».. وبعدها ألقى صدام حسين بعد أن قدمه المذيع بأنه الزعيم الملهم المنتصر بالله دائما بيانا قال فيه أنه يحمد الله أن وفق جيش العراق على تحقيق كل هذا الإنتصار على قوات البغى والعدوان، ويكفى صموده فى وجه قوات ثلاثين دولة، وتكفى الخسائر الفادحة من

القتلى والجرحى وتدمير المعدات والآليات التى أنزلها بقوات التحالف وبخاصة قوات «الشيطان الأكبر» «أمريكا». . أما «الشيطان الأكبر» فكان قد أصدر إحصائية رسمية بخسائر جيشه فى جميع المعارك وجملتها ٩٠ قتيلا بينما كان قتلاه فى لبنان من سنة ١٩٨٢ حتى ١٩٨٤ ـ ٢٦٤ قتيلا، وفى فيتنام كان القتلى الأمريكيون ٧٤ ألفا و ٣٥٨ قتيلا. . بما يعنى أن نسبة الكذب فى أقوال وبيانات الزعيم العراقى الملهم وصلت إلى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ.

وبينما كان الجنرال شوارتزكوف قائد العمليات الذى واجه مخططات «عبقرية» صدام حسين العسكرية يقول عنه بسخرية لاذعة: «أنه ليس إستراتيجيا. . ولا تعلم فنون العمليات الحربية. . كما أنه ليس بارعا فى التكتيك. . ولا هو جنديا. . أما فيما عدا ذلك فهو رجل عظيم فى العسكرية (!)».

كان على الجانب الآخر صوت قائد عربى يقول ـ دون أدنى شعور بالخجل ـ «إن الرئيس صدام حسين نموذج البطل فى العصر الحديث، وسوف أسانده وأدافع عنه دائما (!) وبعدها دوت فى العالم كلمات مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة بعد زيارته للعراق: «لقد تم تدمير العراق وعاد مائة عام إلى الوراء». !

هل شهد التاريخ زعامة إستهانت بالشعوب وبالعقول كهذه الزعامة. . ؟!

وكانت هناك نقطتان سجلهما التليفزيون الأمريكى وعرضتا فى

جميع أنحاء العالم.. الأولى قبل المعارك والرئيس صدام حسين يتفقد قواته فى الكويت على الحدود السعودية وأحد الضباط يتقدم ليسلم عليه وينحنى ليقبل يده وصدام حسين واقف ورأسه فى السماء وكأننا فى عصور الوثنية الغابرة.. والثانية أثناء المعارك البرية وعشرات الآلاف من الأسرى العراقيين يتزاحمون للإستسلام، وواحد من الضباط الأسرى يتقدم إلى ضابط من قوات التحالف ليقبل يده (!) وحين عرض المشهدان فى إحدى قاعات الأمم المتحدة إنتفض أحد أعضاء وفد دولة إسلامية وصاح: هذا حرام.. هذا لا يجوز حتى مع الأنبياء.. وقال آخر: هذا طبيعى.. مادام الزعيم إرتضى لشعبه الهوان والخضوع.

قبلهما كان هناك مشهدان آخران.. أحدهما للزعيم الملهم صدام حسين فى المجلس الوطنى (البرلمان العراقى الشكلى بلا سلطات) يعلن أنه إختار الحرب والإستيلاء على الكويت والويل لجيوش ثلاثين دولة مما ستلاقى منه إذا وقفت أمام إرادته، ولم يكن قد تشاور فى قراره قبل تنفيذه مع أى مؤسسة، لأنه ليست فى العراق مؤسسات دستورية أو سياسية بالمعنى الحديث لهذه العبارة، ولكن فردا واحدا يأمر ويقرر وما على الجميع إلا السمع والطاعة.. وشاهد العالم على شاشات التليفزيون أعضاء المجلس جميعا ـ دون إستثناء ـ مثل الأراجوزات يقفزون فى الهواء ويصيحون، وكل واحد منهم حريص على أن يظهر فى الصورة عسى أن تقع عينا الزعيم عليه وهو يفنى نفسه صياحا «بالروح.. بالدم.. نفديك ياصدام»، أما المشهد الثانى

فيصور عشرات الإجتماعات التى عقدها الرئيس الأمريكى بوش لكى يحصل على موافقة الكونجرس على تفويضه بإتخاذ قرار الحرب ويضع الكونجرس قيداً على الرئيس بأن يكون ذلك عند الضرورة بأغلبية تزيد على النصف بقليل (وليس بالإجماع)، ثم شاهد العالم بعد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وهم يعترضون بقوة، وبعضهم يتساءل، وبعضهم يطلب ضمانات. والرئيس يوضح ويناقش ويرد ويدافع ويحاول كسب مؤيدين لوجهة نظره.. (!)

هذا هو الفرق بين التقدم والتخلف!

فى الملف صفحات سوداء كثيرة، وصور يمكن أن تقودنا إلى فهم حقيقة ما جرى، وتدلنا على إمكان تكراره ما لم يتغير المناخ العام فى العالم العربى، فصدام حسين لم يسقط علينا من كوكب آخر ولكن جاء نبتا فى تربة صالحة لإستمراره ونمو جرائمه بدليل بقائه فيها، والتربة التى تنبت الفساد والطغيان يجب أن توضع فى الإعتبار عند محاولة الفهم. فلولا خضوع الخاضعين لما كان طغيان الطغاة، ولولا جوقة السوء التى تزين لكل طاغية طغيانه وتجبر الشعب على طاعته لما ظهر على الأرض ديكتاتور واحد. وإذا كانت أسلحة الطاغية الثلاثة فى كل العصور هى: الكذب، والقمع، والرشوة، فإن المناخ الذى لا يعيش إلا فيه يستلزم ظهور ثلاث خصال فى شعبه: النفاق، والخضوع، والإنتهازية (!). ظهور الطغاة لا يتوقف على إرادة الطاغية وحده، ولكنه يستلزم قبول شعبه للطغيان.

فقولوا لنا كيف ظهر رجال دين فى العراق وخارجه يقولون أن إعتصاب الكويت حلال، وأنه من الأمور التى ترضى الله ورسوله، وأن تحريرها حرام، وإن الإستعانة بمن يستطيع المساعدة على تحريرها حرام شرعا (!).. أى شرع ذلك..؟

لقد أثبتت تجربة صدام حسين أن بناء القوة بدون الديمقراطية يحولها إلى قوة غاشمة تدمر أصحابها، وأن الحكم الفردى مهما حقق من إنجازات، ومعجزات، فلابد أن ينتهى إلى الخراب.

هل كانت ـ فقط ـ مؤامرة ؟!

كشف الرئيس حسنى مبارك فى حديث إلى الأستاذ إبراهيم نافع عن أن صدام حسين حاول تكوين خلايا لحزب البعث فى مصر، وقبل ذلك أعلن الرئيس مبارك أن صدام حسين حاول من خلال مجلس التعاون العربى إحتواء مصر، وإختراق أجهزة الأمن المصرية، ليحقق أطماعه فى السيطرة على مصر! وفى الأيام الأخيرة توالت تصريحات وزير الداخلية المصرى عن عملاء للبعث أو للمخابرات العراقية تسللوا إلى البلاد ومعهم تكليفات بالقيام بعمليات تخريب وإرهاب وإغتيال. لكن ذلك كله ليس إلا حلقات جديدة أضيفت إلى سلسلة قديمة من المحاولات والمؤامرات جاء الوقت لتعريتها، حتى لا يلدغ المؤمن من جحر عشر مرات!

هناك أكثر من دليل على المخطط السرى لحزب البعث العراقى للتسلل إلى مصر بهدف السيطرة عليها وبها تتحقق الإمبراطورية التى

تنقل صدام حسين من زعيم دولة من دول الأطراف العربية، إلى زعيم لقلب الأمة العربية، ويجسد الهوس الذى سيطر عليه وهو أن يكون عبد الناصر بدون أخطاء عبد الناصر كما كان يقول (!).

والبداية فى الأساس الفكرى للبعث العراقى ذاته، فهو يعتبر نفسه الحزب الوحيد المؤهل لتحقيق أهداف النضال العربى، وأن كل الأحزاب والقوى الأخرى فى العالم العربى تفتقد الرؤية الصحيحة، والفكر الثورى، والإمكانات التى تحققت للبعث بعد وصوله إلى السلطة فى العراق، وبوجود زعامة تاريخية لن يجود الزمان بمثلها (!) ولهذا أنشأ الحزب مكتبا داخل القيادة القومية بإسم «مكتب مصر» مهمته العمل على إنشاء تنظيم واسع وقوى لحزب البعث داخل مصر وبخاصة بين الشباب والطلبة والفئات محدودة الثقافة التى يسهل التأثير عليها بشعارات الحزب البراقة الغامضة، وإختار صدام حسين الرجل الثانى الذى يليه شخصيا فى الترتيب القيادى البعثى ليكون المشرف على هذا المكتب. وبدأ هذا المكتب فعلا فى تجنيد عدد من المصريين الذين ذهبوا إلى العراق بحثا عن فرصة عمل وعدداً آخر من الكتاب والصحفيين، والمثقفين، الذين تجاوبوا لأسباب عديدة، يعلمها الله، ويعلمها بعض الناس.!

ومن داخل جهاز التآمر ذاته هرب سليمان فرحات إلى مصر بعد قصة طويلة من العمل فى حزب البعث تدرج فيها من أول الدرجات (درجة صديق للحزب) إلى أن أصبح عضوا فى القيادة القومية

والإعلامية الموجهة فى السر لإختراق مصر، ومسئولا عن الإذاعة السرية التى أنشأها البعث العراقى للهجوم على السياسات والقيادات المصرية، وأصدر مؤخرا كتابا بعنوان «مذكرات بعثى سابق» ذكر بعض ما يمكن أن يقال من أسرار المؤامرة الكبرى. ومن قراءة الكتاب يمكن أن نصل إلى مجموعة حقائق هامة:

١ ـ إن إستراتيجية صدام حسين تعتمد على ثلاثة مرتكزات أساسية: الجيش، والحزب، والإعلام، لتحقيق حلمه فى أن يكون زعيم الوطن العربى من المحيط إلى الخليج، وبالنسبة لهذه الأنشطة فإن لها ميزانيات مفتوحة بغير حساب، ويدخل فيها بالطبع أنشطة المخابرات التى تتداخل مع هذه المجالات وتعمل فيها ومن خلالها.

٢ ـ وإن المشرف على مكتب تنظيم مصر فى الحزب ـ طه ياسين رمضان ـ كان يبذل الأموال بغير حساب لتجنيد عناصر مصرية، ولإقامة علاقات بمختلف القوى السياسية وبعض الشخصيات، وتصدير فكر البعث (دون ذكر أنه فكر البعث) لكى يكون (خميرة) لتحقيق هدف الحزب فى تحقيق الإنقلاب الثورى وتسلم السلطة فى مصر كهدف نهائى، وكان العمل يجرى تحت ستار الإخوة العربية، ودعم المنظمات الوحدوية، ومساعدة الشخصيات ذات الفكر المستقل، وتشجيع الفكر و.. و.!

٣ ـ لم يستطع طه ياسين رمضان ومكتبه تحقيق الهدف كاملا، فلم ينشأ تنظيم بعثى قوى فى مصر لتحقيق وصول صدام حسين إلى

حكم مصر. ولكنه إستطاع أن يجند ويجذب عدة أشخاص ومنظمات. وكان يخصص لتنظيم مصر عددا من كبار المسئولين الحزبيين فى العراق وفى بعض دول العالم وبعض موظفى السفارة العراقية فى مصر، ويأخذ هذا التنظيم شكلا هرميا، ويراعى إحتياطات الأمن فلا يعرف كل مسئول إلا المنظمات التابعة له فقط دون غيرها من المنظمات التابعة لغيره، ويحمل كل واحد إسما حركيا ومحظور عليه كشف إسمه الحقيقى، وعليه أن يخفى تماما حقيقة إنتماءه إلى البعث العراقى، ويتحرك بين الناس بفكر وسلوك ومبادئ البعث دون أن يذكر إسم البعث على لسانه، وهناك دائما مسئول أمنى يراقبه فى ذلك، وتتعاون جهات الأمن المختلفة فى مراقبته وتسهيل مهمته!

٤ ـ وفى مكتب مصر يوجد «مسئول الإعلام» وهو قيادة كبيرة فى الحزب مسئول عن الإعلام الموجه إلى مصر والمصريين فى أى مكان، ومتابعة توجيهات الإعلام المصرى داخل مصر، وتجنيد أى عدد ممكن من المثقفين المصريين لصالح الحزب إعلاميا وتنظيميا إن أمكن. كما يوجد فى نفس المكتب مسئول للعلاقات العامة مسئول عن توثيق علاقات البعث العراقى ببعض القوى السياسية داخل مصر وخارجها. وجذب بعض شخصيات مصرية، وتمويل مجلات وصحف ومؤسسات بحثية، لكى تعمل ضمن أهداف الحزب على أن يكون معلوما لكل مسئولى القيادة البعثية أن هذه العلاقات «تكتيكية» ومرحلية، تنتهى حين يتمكن تنظيم البعث العراقى فى مصر من ملء

الفراغ السياسى على الساحة المصرية (!) ويعمل مكتب تنظيم مصر أيضا من مقار للبعث العراقى فى المحافظات العراقية «الولايات» ومن مقار البعث فى بغداد، ومقار الفرقة العربية، ومقر إذاعة صوت العروبة، ومن السفارات العراقية بالخارج، ولكن بشكل مستقل.

٥ ـ وكان من بين الوسائل العراقية للسيطرة إعلاميا على العقل العربى (والمصرى بشكل خاص) ما يسمى بالإتفاقيات الإعلامية مع بعض أشخاص فى أحزاب المعارضة المصرية، وهى إتفاقات يلتزم فيها البعث العراقى بدعم نشاطهم فى إطار ما سمى «علاقات الصداقة والتعاون السياسى والإعلامى». بالإضافة إلى جذب عدد من الصحفيين والإذاعيين والفنانين والشعراء.. كل ذلك بهدف التمهيد للزحف البعثى بإبراز صدام حسين كقائد يتحتم أن يقود الوطن العربى من أقصاه إلى أقصاه، والأفضل فى هذه المرحلة التركيز على أفكار وأهداف ومبادئ حزب البعث بإستخدام ما يعرف بالإعلام غير المباشر للتأثير على الرأى العام فى مصر وتهيئة المناخ.. (!)

وكان صدام حسين يتابع بنفسه النشاط الإعلامى وتوجهاته، ونشاط بعض الإعلاميين والفنانين العرب (والمصريين بالذات) ويحفظ أسماءهم، ويسعى إلى أن يلتقى بهم، ويسأل عن مشاكلهم ويحلها، فهؤلاء من وجهة نظره مقدمات.. «فيالق البعث وجيوشه».. وكانت الخطط الإعلامية وتنفيذها مهمة المكتب الثقافى فى القيادة القومية. وكان طارق عزيز هو المسئول الأول، يليه وزير الإعلام (!)

٦ ـ فى إجتماع حزبى قال طه ياسين رمضان: «إن لدينا الآن بعثيين مصريين فى بغداد والمحافظات الأخرى، وتم تجنيد شباب مصريين فى بلاد عديدة عن طريق المنظمات الحزبية فى الخارج» وقال أيضا: «إننا نؤمن إيمانا راسخا أن مستقبل مصر هو حزب البعث، وأن مستقبل البعث هو فى مصر، ومن مصر..» (!).

ألا يجيب ذلك، ولو إجابة مبدئية على تساؤل كان يشغل كل مصرى وإن لم يصرح به هو: ماذا كان يجرى بالضبط وراء العناق والقبلات وأناشيد الحب والمؤتمرات التى تعقد لمناسبات تافهة وبدون مناسبة..

الآن نتعرف بعض الإجابة على الأقل..!

ونعرف إلى أى حد وقعنا فى شرك المبادئ المزيفة المعلنة والأطماع الشريرة الخفية..!

مصدر الخطر
أن نرسى مبدأ القوة فى المنطقة

كان الفيلسوف الألمانى «كانط» يقول: إفعل ما شئت، بشرط أن تقبل أن يكون عملك مبدأ عاما، يتبعه سائر الناس.

ولقد طرح هذا المبدأ نفسه من جديد أمام حدث هز الأمة العربية، بغزو القوات العراقية الكويت، ومحاولة تغيير نظام الحكم فيها بالقوة. وحرق آبار بترولها وتشريد أهلها، ونهب ممتلكاتهم وبيوتهم والإعتداء على حرماتهم.

هل يمكن أن يكون هذا هو الأسلوب الأمثل لحل الخلافات الدولية، خاصة إذا كانت خلافات بين الأشقاء. تربطها إطر متعددة يمكن من خلالها تسوية الخلافات، فهناك الجامعة العربية، وميثاقها يحدد كيفية تسوية المنازعات بين أعضائها سلميا، وهناك الإتصالات

الثنائية التى نشطت فى الفترة الأخيرة، وكان لها دور كبير فى تنقية الأجواء العربية، ثم هناك ـ أخيرا ـ ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على أن يكون حل الخلافات الدولية دون اللجوء إلى إستخدام القوة.

لقد فوجئ الشعب المصرى، ومازال يعيش لحظة الذهول حتى الآن لما جرى فى الكويت، بعد أن تابع إنفراج الأزمة، وإستبعدت إحتمالات الغزو العراقى للكويت التى كانت الصحف العالمية ووكالات الأنباء تتحدث عنها بقوة، ولكننا لم نكن نصدق، إلى أن وقعت الواقعة، وأصبحت القضية معقدة: إذا كان الأشقاء يحلون مشاكلهم فيما بينهم بقوة السلاح فماذا يمكن أن يفعل بنا العدو؟ وإذا كان فرض الأمر الواقع يمكن أن يكون مقبولا من الآخرين، وطالما شكونا وتحملنا من الآلام من جراء سياسات فرض الأمر الواقع، وإذا كنا نحن ـ فيما بيننا ـ لا نلتزم بالقانون الدولى ومبادئ الشرعية الدولية، بأى صورة من الصور.. فكيف نطالب دولة معتدية (إسرائيل) بالإلتزام بها..؟

ليس الوقت وقت عتاب، ولا هو وقت حساب، هو وقت لإنقاذ ما تبقى للأمة العربية من حد أدنى للتنسيق والتقارب وإعتبارات الأخوة والمصير المشترك.. لا نتحدث الآن* عمن أخطأ، ومن

* المقال منشور فى أعقاب الغزو حين كان هناك أمل فى أن يعود النظام العراقى إلى صوابه.

أصاب. ولا نتحدث عما حدث وما كان يمكن أن يحدث بصورة أفضل، بل وليس هذا هو الوقت المناسب للحديث عمن له إستحقاقات.. ومن عليه.. وكم.. فقط هذا وقت العقل، ليعود إلى مكانه، لحقن الدم العربى المستباح فى ساحات كثيرة، وحفظ الأرواح العربية التى تنتهك فى أماكن كثيرة، والإبقاء على الكرامة العربية التى يتربص بها كثيرون.

ولو إرتضينا أن يكون ما حدث فى الكويت هو الوسيلة العربية المعتمدة والمقبولة لحل المنازعات المثارة، فسوف تكون هذه فرصة لا تعوض لأعداء الأمة العربية ليفعلوا بنا ما شاءوا، أو على الأقل نعطيهم فرصة الإنتظار إلى أن يضرب بعضنا بعضنا، ويتهاوى العالم العربى تحت سنابك الخيول العربية.

لا مبادئ الدين الإسلامى، ولا مبادئ الأخوة العربية، ولا القانون الدولى تسمح بإستمرار الوضع.. وكل ساعة تمضى تكرس أوضاعا يصعب تداركها. أخشى أن يكون أولها إهتزاز إيمان الجماهير العربية بجدوى ما يقال عن التضامن العربى والوحدة العربية وأجزاء الجسد الواحد التى تتداعى له سائر الأجزاء بالسهر والحمى إذا أصابها مكروه..

سنوات الكلام الطويلة أصبحت فى إختبار صعب حين جاء وقت العمل، ومصادر الخطر أمامنا كثيرة وإحتمالات المستقبل مليئة بالمخاطر، ليس فقط لما أصاب شعب الكويت ومنشآتها والشرعية

فيها، بل الأخطر من ذلك كله هو أن نرسى مبدأ القوة لحل المنازعات فى المنطقة وبين الدول العربية «الشقيقة» بالذات. وهو مبدأ شديدة الخطورة. يمكن لأى قوة أن تبدأ به، ولكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن ينتهى إليه.

ولعلنا مازلنا نذكر حين حدث الإنفصال فى سوريا وتحركت بعض السفن المصرية متجهة إلى ميناء اللاذقية وكان هناك سند من القانون الدولى بأن الإنفصال خروج على الشرعية وتمرد على سيادة الدولة، ومع ذلك أمر عبد الناصر بعودة السفن وقال أنه يدرك أن إهدار الدم العربى فى هذه اللحظة سيكون سابقة لن ينساها التاريخ، وأنه لا يسمح بأن يشرع السلاح المصرى فى وجه السوريين مهما تكن الأسباب. وكان فى هذا القرار من الحكمة ما حقن الدماء وأبقى للوحدة الزخم القومى، ولم يلوثها بدم أبنائها..

لكن صدام حسين لم يستوعب درس التاريخ، ومارس اللعبة الخطرة، ووضع العالم العربى فى مأزق ليس له مثيل وليست له سابقة، وباع تاريخا طويلا من محاولات السعى الجادة إلى تحقيق الوحدة العربية بالأسلوب الحضارى المناسب.. عن طريق الرضا والإتفاق، وبإرادة شعبية حرة حرية كاملة.

أسوأ ما فعله صدام حسين فى التاريخ العربى أنه أرسى مبدأ القوة، ولو أن هذا المبدأ أصبح قاعدة للتعامل بين الدول العربية، لكان معنى ذلك أن العرب سائرون إلى الإنتحار القومى الجماعى.

فقه العدوان..؟!

أسوأ آثار العدوان العراقي أنه بعد تدمير دولة الكويت وإصابة التضامن العربي في مقتل، توجه عن عمد للإغارة على العقل العربي بهدف إغتصابه هو الآخر، وتدميره، فأصبحت الأزمة بالغة التعقيد، لأنها لم تعد أزمة سياسية أو عسكرية فقط، بل أيضا أزمة في الضمير والعقل.

يكفي أن الرئيس صدام حسين بدأ غارته على العقل العربي بنظرياته الديماجوجية التي تجعل منه مفكرا ومنظرا وقائدا وزعيما وملهما تاريخيا للأمة العربية كلها، ثم بعدها جعل العقل المسلم هدفا لغاراته، فصور نفسه أماما للمسلمين من سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصدر أمرا بكتابة عبارة «الله أكبر» على علم العراق ليجتذب مشاعر العامة والبسطاء، وأخيرا دعا إلى مؤتمر إسلامي

شعبى فى بغداد دعا إليه حشدا كبيرا من علماء العالم الإسلامى فى وقت إشتداد الأزمة فلم يحضره إلا قلة معروفة من حسنى النيات أو من ذوى الأغراض على السواء، بينما إحتشد العلماء من سائر العالم الإسلامى فىّ مؤتمر إسلامى آخر عقد فى السعودية فى نفس الوقت تقريبا.

فى مؤتمر بغداد ترددت مغالطات بالغة الخطر على العقل المسلم، قيل مثلا إن العراق وهى دولة مسلمة حين تضم إليها دولة الكويت وهى دولة مسلمة صغيرة فإنها تكون محققة لهدف من أهداف الشريعة، لأن دار الإسلام دار واحدة، والعمل على توحيد الوطن الإسلامى بعد أن نجح الإستعمار فى تجزئته واجب شرعى وطنى لمن يحققه حسن الجزاء من الله..!

وهكذا وصل الأمر ببعض أصحاب الفقه والمعرفة بالعلوم الشرعية إلى أن يسخروا علمهم فى خدمة الأطماع والعدوان، ويلجأوا إلى منطق ملتو لا ينطلى إلا على قوم فقدوا عقولهم، وهم لا يدركون أن التوحيد القائم على الإكراه والإغتصاب لا يمكن أن تقره مبادئ العقل والإنسانية، ولا يمكن أن يتفق مع منطق العدالة، فكيف يتفق مع شريعة الإسلام؟

وفى مؤتمر بغداد المشبوه أيضا قيل أن ما فعله العراق بغزو الكويت كان مقصودا به أن يخرج به الإسلام من الضعف إلى القوة، ومن الفرقة والإنقسام إلى الوحدة..!

قيل أيضا أن إستعانة دولة مسلمة بقوات غير مسلمة لرد العدوان الواقع عليها (من دولة مسلمة أخرى) هو إعتداء على الشريعة، لأن الإسلام لا يقر إستعانة المسلم على محاربة المسلم بغير المسلمين (!) وكأن شريعة الإسلام وفقا لهذا المنطق، تطلب من المسلم الضعيف إذا لم يجد بين المسلمين من ينتزع له حقه الذى إغتصبه أخوه المسلم، فليس أمامه إلا الإستسلام والرضا بالمذلة والتشريد وضياع الوطن، وكأن الإسلام دين لا تعرف شريعته إلا قانون الغاب، ومنطق القوة، وليس للحق والعدل عنده حساب (!).

كان من الممكن إعتبار هذا المؤتمر عملا من إعمال الدعاية السياسية الفجة التى تقوم بها الأجهزة العراقية دون مراعاة ما تسببه بها من إساءة للإسلام والمسلمين بإعتبار أن القاعدة المطبقة هناك منذ سنوات طويلة هى أن الغاية تبرر الوسيلة، وكل شئ مباح من أجل تحقيق الأطماع، وكل ما يبرر ويحقق هذه الأطماع فهو مشروع وشرعى، ولكن الأمر الذى يجب عدم السكوت عليه هو تأثير هذه الأكاذيب، بل هذه السموم الفكرية، على العقل، وعلى شريعة الإسلام..

هل يمكن أن ندع للأطماع أن تضع لنا قواعد شرعية جديدة لما يمكن تسميته «فقه العدوان»..؟ هذا هو السؤال الذى أراه أشد أهمية من تتبع الأحداث والمعارك، لأنه يتصل بتكوين الشخصية والعقل والمفاهيم فى العالم العربى، ولا أظن أحدا يسمح بتشويه كل ذلك أمام عيوننا ويدع المستقبل نهبا لمنطق الشيطان يسود على أنه

منطق الشريعة السمحاء العادلة.. لا أظن أحدا يرضى بإستخدام الإسلام على هذا النحو لتكريس العدوان ولو كان من مسلم على مسلم، وطرح مقولات مغلوطة (وما أكثرها فى الساحة) ظاهرها الحرص على الشريعة، وباطنها الإستهانة بها.

وفى مؤتمر السعودية كان علماء المسلمين يدافعون عن الشريعة السمحاء.

أكدوا أن الإسلام دين العدل، وكل من يخرج على مبدأ العدل يكون خارجا على الإسلام.

وأكدوا إن الإسلام دين الأمان، وكل من يهدد أمان الآخرين بغير حق فهو معتد يجب شرعا على المسلمين جميعا ردعه إلى أن يفئ إلى حكم الله.

وأكدوا أن الحرب فى الإسلام محرمة، وأن العدوان والإغتصاب لا يبررهما إلا دفع ظلم أو إعتداء. وقال الدكتور محمد السيد طنطاوى مفتى مصر إن أول آية فى القرآن نزلت فى القتال تحدثت عن مشروعيته من أجل رد الظلم: «إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق.. إلخ» فقد أعطت الآية، رخصة للمسلمين بأن يقاتلوا الظالم لنصرة المظلوم، وكل من يموت دفاعا عن حقه فى الحياة الآمنة ودفاعا عن وطنه وبيته وماله فهو شهيد.. وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم صريح.

وقالوا أن شريعة الإسلام حرمت الغدر والخيانة ونقض العهود «إن الله لا يحب الخائنين» حتى مع غير المسلمين والإسلام يرفض رفضا قاطعا أن تغير دولة غير مسلمة على دولة مسلمة أخرى لتحتل أرضها دون إخبارها بتحللها من العهود، فما بالك بدولة مسلمة تربطها عهود فى الجامعة العربية والدفاع المشترك ومعاهدات عدم إعتداء..

وإذا لم يكن العدوان العراقى هو الغدر بعينه فماذا يكون..؟

وقالوا إن آداب الحرب فى الإسلام تلزم بحماية حقوق الذميين والمعاهدين والمستأمنين الذين يعيشون داخل البلد المسلم أو لا يعشيون فيه، فكيف يخالف العراق هذه القاعدة الشرعية ويتخذ الأجانب رهائن ويعرضهم للإيذاء المادى والمعنوى ويخرج بذلك على الشريعة؟

وقالوا إن أمر الله صريح فى تجمع المسلمين لقتال الفئة الباغية إلى أن ترجع إلى الحق «فقاتلوا التى تبغى.. إلخ» فإن كانت قوة المسلمين غير كافية لردع العدوان فلابد من الإستعانة بغير المسلمين لأن الرضا بالظلم هوان، والإسلام لا يرضى لأبنائه الهوان. ومن القواعد الشرعية أن الضرر يزال ـ وإن الضرورات تبيح المحظورات، وأن الضرورة تقدر بقدرها، والذين يقدرون حدود الضرورة هم أولو الأمر، وبأمر الله: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء..» وإن كان فى الإستعانة بالأجانب خطر فإن الذى يتحمل نتائجه هو المتسبب فى وجودهم بعدوانه، والذى لولا عدوانه لما تمت

الإستعانة بهم.. واذن يجب أن نرفض المقدمة التى استوجبت وجود النتيجة وليس العكس.

جدل غريب.. فى عالم ينطلق إلى آفاق مذهلة من التقدم والحضارة وتعميق القيم الإنسانية والحضارية.. ثم نجد من بين المسلمين من يريد أن يفرض علينا قيما بربرية متخلفة ويلصقها بالإسلام..

أليس حراما كل هذا العدوان على العقل المسلم، بعد العدوان على أراضى وأعراض وأموال المسلمين.؟!

توظيف الإسلام..!

لماذا أصبح الإسلام مطية كل طامع وكل محتال..؟

ولماذا يعمل البعض على إفساد الصحوة الإسلامية بتقديم الإسلام فى صورة مشوهة، وكأنه دين ليست له دعوة إلا إلى التخلف والعودة إلى نظم الحياة البدائية، وليست له رسالة إلا تكريس الإستبداد، وليس له هدف إلا إستخدام العنف ومواجهة الرأى بالقتل والقهر، وليست له قضية إلا مساندة الظالم على المظلوم، وليست له دعوة إلا قتل أدمية المرأة..؟ وكأنه شريعة عصابات وليس دينا راقيا ساميا متصلا بإرادة الله الذى هو الحق والعدل.

هل هذا هو الإسلام حقا؟

القضية بالغة الدقة والخطورة.. وهى ليست جديدة.. وفى التاريخ الإسلامى صفحات سوداء يمكن جمعها فى كتاب تحت عنوان

«إستغلال الإسلام» أو «توظيف الإسلام» لخدمة أهداف أعدائه حينا، ولخدمة أطماع الحكام أحيانا أخرى، وفى كل حين من الزمان هناك فئة من رجال الإسلام جاهزون بأسلحة الفقه للإفتاء: قال الله تعالى.. قال سيدنا رسول الله.. ولا يخشون حساب الله يوم القيامة فيما يقترفون من ذنوب بالإدعاء والإساءة إلى شريعة الله، أصغرها تفسير أحكام الله على غير مراد الله، وإستخدام مبادئ الشريعة فى غير موضعها، ومحاولة التغرير بالعامة من المسلمين بإستغلال عواطفهم النقية ومشاعرهم.

وآخر فصل فى كتاب «توظيف الإسلام» عشنا ونعيش سطوره بالدم والدموع بدءا من إعتداء الرئيس العراقى المسلم على دولة الكويت المسلمة، وإنتهاء بتدمير مدن المسلمين وثرواتهم وحرق آبار بترولهم، وتبديد ثروة فى أرض الإسلام لحساب الشيطان، وكل ذلك يتم تحت شعارات إسلامية، على أنها جميعا (إغتصاب دولة مسلمة ـ وإغتصاب الأعراض المسلمة ـ ونهب الثروات فى الأرض الإسلامية وحرقها وتدميرها ـ وقتل المدنيين المسلمين) إنما تتم تقربا إلى الله تعالى ومرضاة له وطاعة لأوامره.. وتذهلنا هذه الجوقة الغريبة المريبة التى ظهرت لتدق الطبول وتبشر بأن الرئيس صدام حسين لا يفعل ما يفعل إلا من أجل رفعة الإسلام (!!).

والرئيس صدام حسين صاحب التاريخ الطويل فى العمل السياسى المرتكز على فكر علمانى محض معروض ومنشوره أراد أن يركب منذ

سنوات موجة الصحوة الإسلامية ويستغلها لحسابه، ويستخدم مفردات إسلامية لأول مرة منذ تولى الحكم، وآخر بياناته نداء بعد غزوه للكويت يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد معه (!) وسبقه قرار بكتابة عبارة «الله أكبر» على العلم العراقى، وفى تملق ساذج للمشاعر الإسلامية.

هل يمكن أن يسمح الإسلام ـ حقا ـ للمؤمن القوى بأن يقتل ويسلب أموال المؤمن الضعيف؟

هل يمكن أن يمنع الإسلام المسلم المظلوم من الإستعانة بمن يعينه على إستعادة حقه المغتصب إذا عجز المسلمون عن ذلك؟

ألم يعاهد الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود للدفاع عن المدينة.

ألم يستعن الرسول بواحد من المشركين ليكون دليله وموضع سره فى أخطر عمل فى حياة الرسول والإسلام وهو الهجرة من مكة إلى المدينة؟

أليس رب الإسلام هو الذى حرم الظلم (ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وحرمته بينكم، فلا تظالموا) كما جاء فى الحديث القدسى.

ثم من الذى يعلن «الجهاد»؟ الغاصب المعتدى، أم المعتدى عليه الذى إغتصبت أرضه..؟ أليس رسولكم صلى الله عليه وسلم هو

الذى شرع لكم بأن «من مات دون أرضه، ومن مات دون ماله، ومن مات دون عرضه، فهو شهيد».. أم فيكم من لديه شريعة أخرى.

إن ابن خلدون يتحدث فى مقدمته الشهيرة عن العدوان وكأنه يبعث إلينا - فى عصرنا - برسالة لينبه العقول الغافلة، ويكشف العقول المتآمرة، فيقول «إن العدوان لا يقوم إلا بين الأمم الوحشية، الساكنين بالقفر، لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم، ومن يدافع عن متاعه أذنوه بالحرب، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم، أما ما يسمى فى الشريعة بالجهاد فهى حرب عدل..»

الجهاد حرب عدل.. والمسلمون لا يحاربون إلا من أجل قضية عادلة.. لأن دينهم جاء لإقرار العدل، ولأن ربهم هو العادل..

ثم ألم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر قادة جيوشه: «أزروا ولا تغلوا.. ولا تغدروا.. ولا تمثلوا.. ولا تقتلوا وليدا..» طبقوا ذلك على ما فعله «أمام المسلمين» و «إمام المجاهدين» صدام حسين.

ألم يحرم الإسلام «الغدر»، وقرر أن «الإنذار» شرط لازم قبل القتال وهو ما يسمى الآن «إعلان الحرب».. حتى مع الكفار «وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ اليهم على سواء» وليس لكلمات الله

العزيز معنى إلا ضرورة إعلان نقض العهود المبرمة قبل البدء بضرب أول سهم.. ولذلك قال الفقهاء: «إن علم المسلمون يقينا أن القوم لم يأتهم خبر (نية الحرب) فالمستحب لهم ألا يغيروا عليهم حتى يعلموهم، لأن هذا شبيه بالخديعة. روى أبو داود والترمذى وغيرهما أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد، وسار نحو بلادهم لغزوهم، فجاء رجل على فرس وهو يقول: «الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا هو عمرو بن عيسة السلمى، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فليشهد عقده، ولا يحلها، حتى ينقض أحدها، أو ينبذ اليهم على سواء» فرجع معاوية بالناس.. (السير الكبير ج ٣).

إن كان ذلك مع الكفار، ومع غير المسلمين، فماذا فعل إمام المسلمين وإمام المجاهدين الرئيس صدام حسين مع الكويت وشعبها.؟ ألم يأمر خليفة رسولنا (أبو بكر الصديق) أسامة بن زيد حين بعثه على رأس جيش لحرب الكفار (لا تخونوا.. ولا تغدروا.. ولا تمثلوا.. ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا إمرأة.. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه.. ولا تقطعوا شجرة مثمرة.. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لماكله.. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. إلخ».

أنظروا.. لا تقطعوا شجرة..!

فما بالكم بمن حرق آبار البترول ودمر دولة.. ؟ ليس جهادا إذن، ولكنه غدر.

لكن أهل الهوى أو الغفلة لم يفرقوا، أو هم لا يريدون أن يفرقوا بين الإثنين.

والله أعلم إن كان ذنبهم هذا من الذنوب المغفورة، أم أن الأرواح التى أزهقت، والدماء التى سفكت والثروات التى تبددت ستظل فى أعناق كل من دافع وبرر إلى يوم القيامة ليلقوا عليها الجزاء العدل..

إزالة العدوان على العقل المسلم

عندما يأتى اليوم الذى تنتهى فيه الآثار المباشرة لحرب تحرير الكويت، ويصبح الشغل الشاغل للجميع هو إزالة آثار العدوان وإعادة بناء ما خربته الحرب سيكون ذلك بداية لمرحلة صعبة أخرى تستنزف فوق ما استنزفت المعارك. . ولكن الأصعب منها سيكون محاولة إزالة آثار العدوان على العقل المسلم الذى تعرض للتخريب خلال هذه الأزمة، وأغارت عليه أسراب من الفكر المضلل أصابته فى الصميم. . ويعلم الله كم من السنين، أو من القرون، سوف يحتاج إعادة بنائه وفقا لمنهج الله، وبعيدا عن هجمات الزيف والتضليل التى تعرض ولا يزال يتعرض لها.

فليس غريبا أن يرتدى القاتل والمقتول رداء الإسلام، وأن تسفك دماء المسلمين تحت شعارات وإدعاءات إسلامية، فتلك أمور قديمة

عرفها الإسلام منذ بدايات نشأته، ولكن الغريب أن تطل مرة أخرى «الشعوذة السياسية» مرتدية عباءة الإسلام لتتحدث بالكتاب والسنة فى حرب الخليج لتبرر عدوان العراق على الكويت بحجج شرعية (!).

وغريب أيضا أن يكون مبدأ «التقية» الشيعى قد تغلل، وأسئ إستخدامه إلى هذا الحد فأصبح ستارا لإنتشار ظاهرة «النفاق العقائدى»: القول غير الفعل، والظاهر غير الباطن، والدفاع اليوم عن نقيض القضية التى كانت موضع اتهام بالأمس.

يضاف إلى ذلك الجهد العظيم الذى يبذله البعض لتلبيس المبادئ الإسلامية على سلوك سياسى يتعارض مع أبسط هذه المبادئ، وإسباغ الطابع الإسلامى لقيادات سياسية لم يشغلها يوما تطبيق الإسلام فى سلوكها، أو فى نظام حكمها، أو فى تشريعات بلدها، أو فى علاقات الداخل بشكل عام، فلما حانت لحظة تفجر إطماع الخارج وجدت فى حديث الإسلام وسيلتها لجذب العامة والسذج، وفقهاء «التفصيل» لكل حاكم بما يريد. وفتاواهم دائما حسب الطلب..!

يستغلون ما يعانيه المسلمون من تمزق بين إنضمامهم لقضية الحق مع الكويت، والأسى الذى يملأ قلوبهم، لأن تصلب الرئيس العراقى فى إستمساكه بالعدوان لا يدفع ثمنه إلا الشعب العراقى وهو شعب شقيق له مكانة خاصة فى القلوب. الدم العراقى يهمنا بقدر ما أن أرض الكويت تهمنا، والأمر الإلهى صريح: «فإن بغت إحداهما

على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله». . ولكن فقهاء العدوان يريدون تعطيل أمر الله ليدخلوا فى روع العامة أن مساعدة البغى هو الواجب. . يتحذون من وجود القوات الأجنبية ذريعة لقلب الحقائق، ووجود هذه القوات شر بالتأكيد، تسبب فيه الإعتداء العراقى، وكان الرئيس العراقى يستطيع أن يسلب هذه القوات الأجنبية مبرر وجودها بأن ينسحب من الكويت ويكف عن إحتلالها.

كيف يستسيغ العقل المسلم القول بأن من حق العراق أن يغتصب الكويت لأن إسرائيل تغتصب الضفة الغربية وغزة والجولان، وأن العراق له شرعا أن يدمر الكويت لأن إسرائيل تدمر المسجد الأقصى. . هل مثل هذا الهراء الذى يقال وينشر بغوغائية نادرة يمكن أن يكون حقا لصالح الإسلام والمسلمين. . أم أنه يشوه ويدمر ويفسد. . ؟

ثم يقولون أن عدوان العراق على الكويت جاء من أجل العدل الإجتماعى. . وأنه صرخة لإعادة توزيع الثروات البترولية الإسلامية على أسس عادلة. . وأن هذا هو الإسلام. . والعراق ليس بلدا فقيرا، ولكنه من أغنى دول البترول فى العالم، وهو ثانى دولة عربية فى إحتياطى البترول، وتأتى دولة الكويت بعده فى المركز الثالث، فماذا أعطى العراق من أموال البترول للإسلام والمسلمين، وأين ذهبت مئات المليارات من الدولارات التى حصل عليها من بتروله

ومن بترول الآخرين.. هل أنفقها جميعا فى أوجه الإنفاق الشرعى التى ترضى الله ورسوله؟ فكروا، وحاسبوا أنفسكم على ما تقولون قبل أن يحاسبكم الله عليه.. ومن يدرى فقد يكون يوم الحساب قريبا..

ويقولون إن الغرب يريد تدمير الصحوة الإسلامية، وفى هذا القول حق، ولكن هل الصحوة الإسلامية أن يدمر العراق دولة صغيرة مسلمة مثل الكويت..؟

ويلقون الخطب يشيدون فيها بالرئيس صدام حسين لأنه ألقى بصواريخه على القدس وتل أبيب والظهران والرياض، وهل يبلغ الخلط والخلل فى العقول إلى حد أن تتساوى الرياض وتل أبيب..؟! لا أحد منهم يذكر أن هناك معاهدات تربط بين العراق ودولة الكويت عليها توقيع الرئيس صدام حسين.. من بينها معاهدة دفاع مشترك تلزم العراق بأن يدافع عن الكويت من أى خطر يتهدده (!).. هل على الأرض مسلم ينكر أن الوفاء بالعهود والمواثيق من أهم مبادئ الإسلام..؟ ألم يأمركم ربكم فى محكم آياته «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم..» ليس فقط مع المسلمين، بل ومع المشركين «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا، ولم يظاهروا عليكم أحدا، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين» وفى هذه الآية بالذات نص يلزم المسلم بإحترام أرض كل دولة يرتبط معها بميثاق، وهناك من الله أمر آخر يجعل إحترام المواثيق مقدم على

نصرة الإخوان فى الدين. «وإن إستنصروكم فى الدين فعليكم النصر، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق».

ألا ترون أن الإسلام دين يقيم دولته على أسس عادلة وأخلاقية، وأنه يعتبر الإنقضاض على دولة داخلة فى عهد أو ميثاق «غدرا» محظورا، وللغدر باب فى الفقة الإسلامى فيه تفصيلات كثيرة، ولفقهاء المسلمين مبدأ يرفض الغدر حتى لمواجهة الغدر، ويقولون «وفاء بغدر خير من غدر بغدر». ؟!

ثم يقولون إن الكويت هى التى تسببت فى الحرب لأنها إستنجدت بغير المسلمين لإستعادة حقها المسلوب. وهم بذلك يناصرون الظالم على المظلوم، ويؤيدون من أفسد فى أرض المسلمين وينسون قول ربهم الأعلى: «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون فى الأرض، أولئك لهم اللعنة، ولهم سوء الدار»، ولعلهم يعودون إلى سورة الرعد فقد يثوبون إلى الرشد، أو إلى سورة الأعراف ليروا أمر ربهم: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها..».

ما يحدث فى ساحة الجدل الإسلامى فتنة، إشعلتها إطماع الساسة ومناورات السياسة، وأنساق فيها خطباء كل مناسبة، كانوا بالأمس يهاجمون العراق ويهتفون للإمام الخمينى لأنه إمام المسلمين ويدعون له بالنصر على صدام حسين ممثل العلمانية، واليوم يهاجمون الكويت والسعودية ومصر، ويدعون بالنصر لصدام حسين لأنه إمام المسلمين

والمدافع عن شريعة الإسلام.. ولا أعرف ماذا سيقولون غدا.. والإسلام فى أيديهم لعبة كل يوم.

ألا ترون أن العقل المسلم فى محنة. وأن العدوان عليه شديد، وأنه مهدد بالتدمير، وأن إزالة العدوان عليه ـ بعد الحرب ـ ستكون بالغة الصعوبة، وقد تكون مستحيلة..

ثم ألا تسمعون نداء ربكم وتراجعون أنفسكم: «وإتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، وأعلموا أن الله شديد العقاب».

وهل يمكن أن يتعارض أمر الله مع مقتضيات العقل السليم..؟

ما تبقى من المؤامرة..!

لا يستطيع أحد أن يحدد لنا الحجم الحقيقى لآثار وبقايا المؤامرة الكبرى التى قام بها الرئيس صدام حسين، لأن الآثار تفوق الحصر من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ما ندركه منها حتى الآن ليس إلا جانبا ظاهرا بينما المصائب الكبرى مازالت بعيدة عن العيون ستظهر تباعا وعلى مدى سنوات طويلة وسوف تتكشف مدى خطورتها على المستقبل العربى.. لكن شيئا واحدا شديد الخطورة لا يحتاج إلى إنتظار لتفهم أبعاده ولا إلى وقت طويل لإدراك جسامته، وهو ما حدث قبيل وأثناء المؤامرة من عدوان متعمد على الإسلام. وتشويه مع سبق الإصرار والترصد لمبادئه وروحه.

وإذا تلمسنا العذر لأخطاء وخطايا بعض السياسيين فى هذه المؤامرة فهل يمكن تلمس عذر للذين أساءوا إستخدام الإسلام

وحولوه إلى سلاح للدفاع عن قضايا الباطل.. وهل كان هؤلاء يجهلون أن منهاج حزب البعث العراقى الذى يحفظه جميع أعضائه ظهرا عن قلب يقرر أن الدين من الموروثات القديمة البالية التى يجب التخلى عنها كلية كشرط أول لإكتساب العضوية والترقى.

ولا أظن أحدا من هؤلاء كان يخفى عليه أن إذاعة وتليفزيون بغداد كانا لسنوات طويلة ـ ومازالا حتى الآن ـ يسيران على سياسة صارمة هى عدم الإرتباط بتوجهات دينية إلا فى إطار ما يراه الحزب فى بعض الأوقات من إستخدام الدين إستخداما إنتهازيا كسلاح إعلامى للتأثير على من يسميهم الحزب فى مؤلفاته العقائدية الأساسية: «الأغبياء والمخدوعين».. أو لمحاربة «النزعات الدينية وما فيها من موروثات بالية»! ولذلك فإن البرامج تبدأ بدون إذاعة القرآن الكريم كما هو متبع فى جميع الإذاعات فى العالم الإسلامى، وفى القاهرة الآن كتاب تضمن إعترافات «بعثى سابق» يروى فيه ما كان يجرى فى مدرسة الإعداد الحزبى لإعداد المرشحين لشغل المناصب القيادية، وما يلقيه فلاسفة الحزب فيها من محاضرات لهدم الأسس الدينية إبتداء من ميشيل عفلق وإنتهاء بالياس فرح ونزار الحديثى! وفيه أن عضوا فى الحزب كتب تقريرا رفعه إلى قيادته عن ظاهرة زيادة عدد المترددين على المساجد فى حى الثورة ببغداد، وأنه لاحظ أن المسجد المجاور لمنزله يضم ١٠ مصلين دفعة واحدة، ويقترح العمل على تحجيم هذه الظاهرة تنفيذا لتوصيات المؤتمرات القطرية. ويشرح الكتاب شروط الترقى فى المناصب الحزبية للأكثر قدرة على

التجسس على رفاقه وكتابة التقارير عن تحركاتهم وعلاقاتهم وهمساتهم، وترك الدين والإبتعاد عن كل ما يتعلق به، بإعتبار أن ذلك هو «تخطى الموروثات المتخلفة فى المجتمع العربى والتأكيد على علمانية الحزب، والتخلى عن الظاهرة الدينية من أساسها وعن مفاهيمها وطقوسها. ويشير الكتاب إلى عضو رفع تقريرا إلى قيادته يسأل فيه عن سبب عدم تغيير مواعيد الإجتماعات الحزبية فى شهر رمضان لتناسب ظروف الصيام لأن الإجتماعات تتم دائما فى لحظة آذان المغرب بالضبط، فقام المسئول الحزبى بالتأشير على هذا التقرير بمتابعة صاحبه لمدة ثلاثة شهور، وفصله إذا ثبت تمسكه بهذه الأفكار المتخلفة.. والفصل يعنى التصفية الجسدية فى معسكر اعتقال، أو حادث سيارة مجهولة مندفعة، وهكذا جزاء البعث العراقى لمن يصوم رمضان..!

ويعرف الذين استخدموا الإسلام لعبة لخدمة مؤامرة صدام حسين أن الصحافة العراقية تخلو من أى مساحات مخصصة للدين، بينما تفرد صفحات للهجوم على خصوم الحزب من أنظمة وأحزاب وشخصيات على إمتداد الساحة العربية ممن لهم توجهات إسلامية من قريب أو بعيد! ويعرفون أن كثيرا من القيادات الإسلامية قتلت أو إختفت بقرار من «الرئيس القائد» شخصيا، وأن قوائم الممنوعات فى المطارات العراقية تشمل حظر إدخال الصحف والمجلات والكتب ذات الطابع الدينى، والويل لمن يعثر على بعض هذه المطبوعات فى حقائبه! وكل من يكتشفون أن له توجهات دينية فإن الإتهام الجاهز له

كمبرر لتصفيته هو أنه عميل لأمريكا حتى وإن كان مشهورا بالعداء لأمريكا، وبينما يمنح صاحب كل قصيدة فى مدح «القائد» سيارة.. أوألف دينار.. أو كليهما ـ بحسب أهميته ـ يمنح المتدينون رصاصة من مسدس كاتم للصوت!

لكن ذلك كله لم يمنع البعض من أن يشمروا عن سواعدهم ويجتهدوا فى تنفيذ القرار الذى أصدرته «القيادة» بعد ذلك بإستخدام الدين ضمن وسائلها الإعلامية، فأصبح صدام حسين بفضل بلاغتهم و «إخلاصهم فى العمل» وليا من أولياء الله الصالحين، وسليل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن نسل سيدنا الحسين بالذات! كما أصبح بفضل أكاذيبهم حامى حمى الإسلام، ومقدساته، وجنديا فى حزب الله فى مواجهة حزب الشيطان!

وهؤلاء بالذات يعلمون أنه بعد تنفيذ قرار صدام حسين بإعدام الإمام آية الله محمد باقر الصدر وشقيقته العالمة نبت الهدى قال الرئيس العراقى فى إجتماع حزبى للكوادر تعليقا على ذلك: «يدعون أننا لا نعرض هؤلاء الخونة على محاكمة عادلة، فهل سيكون فى العراق من هم أعدل من البعثيين وقادتهم..؟ ردوا عليهم.. قولوا لهم أن صدام حسين سيقطع ذراعه إذا خانته، وأن وقت الحزب والثورة لن يضيع هباء وسط إدعاءات دفاع وإدعاءات إتهام ومداولات قضاة، قولوا لهم أننا سنسحق عملاءهم كلما وجدناهم..» وظل «الرئيس القائد» بعدها يوجه إنذاره، ويطلق زبانيته على كل من يعلو صوته بكلمة الله، لا يهمه أن يكونوا من السنة أو الشيعة.

وليس خافيا على أحد أنه حين قرر البعث العراقى فى الفترة الأخيرة مهادنة «الظاهرة الدينية» لإتخاذها جسرا لإختراق العالم العربى ألقى فيلسوف الحزب ميشيل عفلق محاضرة نشرت بعنوان «ذكرى الرسول العربى» تحدث فيها عن الرسول صلى الله عليه وسلم بإعتباره باعثا للأمة، وقائدا للنهوض العربى. ولم يتحدث عنه كمبعوث من الله برسالة للعالمين وبكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم بدأ تدريس الموضوع فى مدارس الحزب على أساس رفض المفاهيم غير العلمية كالوحى، والغيب، والقضاء والقدر.

وبينما كان صدام حسين يتحدث فى العلن عن الرسالة الإسلامية بإعتبارها رسالة إنسانية عظيمة، كان يعلم كوادر الحزب من سموم كتابه المعروف عن «الدين والتراث» وكتابه الآخر وعنوانه «حول كتابة التاريخ» عن ضرورة تجاوز الظاهرة الدينية، وإن إلتزام البعثيين الأساسى بالعقيدة البعثية دون «أية عقائد أخرى»..!

لا نعرف إذن كيف تقدم البعض ـ متطوعا أو غير متطوع ـ للدفاع عن مؤامرة صدام حسين من منطلق إسلامى، وأدعوا أنه المنقذ من الضلالة.. والمهدى المنتظر لقيادة المسلمين ضد الكفار، ورفع ألوية الإيمان على قلاع الملاحدة، ومبعوث العناية الإلهية لإعادة العقيدة إلى نقائها الأول كما كانت فى صدر الإسلام.

إن آثار تدمير المبانى والمنشآت سوف تزول اليوم أو غدا، ولا أحد يعرف إن كانت ستزول آثار الأحزان على الشهداء الذين سقطوا فى معركة بلا قضية، أما آثار التدمير الذى حدث فى الساحة الإسلامية فمن المؤكد أن علاجه لن يكون سهلا ولن يكون سريعا. فهو أخطر ما تبقى من المؤامرة.

أسرار ترسانة صدام!

عندما تحرك ١٠٠ ألف جندى عراقى ليلة ٢ أغسطس ١٩٩٠ لإحتلال الكويت لم يكن سرا أن صدام حسين كان يبنى ترسانته العسكرية منذ ١٥ عاما، ولم تكن أطماعه التوسعية، ولا نزعته إلى الزعامة والسيطرة على المنطقة أمرا خافيا، كذلك لم يكن مفاجأة ما أذيع عن الصناعات الحربية والأسلحة الكيماوية والنووية التى أنشأها، ولا كانت الحقيقة غائبة من إفلاس الخزانة العراقية لإستنزاف موارد البترول الهائلة فى إعداد آلة الحرب لتحقيق أوهامه فى فرض سيطرته على المنطقة.

ومع ذلك فإن السؤال ـ اللغز ـ مازال قائما بعد مرور أعوام دون أن نصل إلى حل طلاسمه: من الذى ساعد صدام حسين على إمتلاك كل هذه الأسلحة التى جعلته يتحول من مجرد حاكم ديكتاتور

إلى مصدر تهديد، ومن قائد يعانى من تضخم الذات إلى مسيطر على آلة حرب قالت عنها أمريكا أنها القوة العسكرية الرابعة فى العالم. . بل وتقول أيضا أنه أصبح قوة إقليمية عظمى. . !

ربما يساعدنا على الفهم كتاب جديد صدر فى لندن هذا العام بعنوان «لوبى الموت» من تأليف كينيث آر تيمرمان، وهو كاتب متخصص فى الدراسات الأمنية والعسكرية، وقد ركز دراساته فى الفترة الأخيرة على شبكات الأسلحة بالسوق السوداء والحرب بين إيران والعراق وتكوين القوة العسكرية العراقية، وقد بدأ الإعداد لهذا الكتاب منذ عام ١٩٨٦ وظل ست سنوات يحدد ويحلل أنواع الأسلحة التى صنع بها صدام حسين ترسانته العسكرية ومصادرها المعلنة والخفية، وإنتهى من بحثه إلى حقيقة أن «فرانكشتين» لم يتكون فى يوم وليلة ولكنه تكون خلال سنوات، وبمساعدة من جهات ظاهرة وجهات تعمل فى الخفاء وهى فى النهاية يجب أن تتحمل نصيبها من المسئولية، لأن العراق طوال السنوات الماضية كان سوقا ضخمة للسلع الحربية الفرنسية، الألمانية والإيطالية والبريطانية والنمساوية والأمريكية. ولذلك فإن المؤلف يقصد بعنوان الكتاب «لوبى الموت» الشركات الغربية والبنوك التابعة لها وأنصارها فى الحكومات الذين شكلوا فيما بينهم جماعة مصالح قوية ساهمت فى بناء «آلة الموت» فى يد صدام حسين ثم إحتاج تدميرها بعد ذلك إلى ما يقرب من نصف مليون جندى وحشود عسكرية أمريكية وغربية لم

يسبق لها مثيل، وقوات نيران، وأجهزة تكنولوجية شديدة التعقيد ظهرت للعلن لأول مرة، وإجراءات تفتيش وتحليل وبحث وتنقيب بالغة الغرابة، شارك فيها خبراء دوليون وتدخل فيها مجلس الأمن..!

يكشف الكتاب عن أن العلاقة العسكرية الوثيقة بين فرنسا والعراق بدأت بزيارة صدام حسين لباريس فى ٥ سبتمبر عام ١٩٧٥ بعد أن فرض السوفييت حظرا على تصدير السلاح إلى العراق، وخلال الأعوام الخمسة عشر التالية أنفق صدام حسين ٢٠ بليون دولار على شراء أسلحة فرنسية شملت كميات ضخمة من الأسلحة المتطورة وتكنولوجيا نووية، وفى هذه الفترة كانت أجهزة الإعلام الفرنسية تطلق على العلاقة بين البلدين «زواج العقل». وإشترى صدام من فرنسا أول مفاعل للأبحاث النووية أسماه «تموز (١)» ثم اشترى من فرنسا أيضا المفاعل الثانى الذى أسماه «تموز (٢)» وعقدت معاهدة تعاون نووى فرنسى عراقى فى بغداد فى ١٨ نوفمبر عام ١٩٧٥ وبتكلفة قدرها ثلاثة بلايين دولار، وجاء فى هذه المعاهدة أن فرنسا ستقوم بتدريب ٦٠٠ فنى نووى عراقى.

يكشف الكتاب أيضا أن فرنسا أمدت العراق بكميات ضخمة من اليورانيوم المخصب، وأصبح جاك شيراك رئيس الوزراء الفرنسى فى ذلك الوقت معروفا باسم «مستر العراق».. ومع بداية عام ١٩٧٦ كان العراق قد أصبح خامس أكبر دولة مستوردة للسلاح فى العالم،

خاصة بعد أن إكتشف صدام حسين أن هناك دولا فى العالم الثالث يمكنها تزويده بتكنولوجيا عسكرية لا تقل عما يقدمه الإتحاد السوفيتى والغرب بأسعار أقل كثيرا، وهكذا توثقت علاقته بمصادر السلاح فى يوجوسلافيا، ولعبت البرازيل دورا رئيسا فى ذلك مقابل حصولها على الدولارات البترولية التى أعطت دفعة كبيرة لصناعة الأسلحة البرازيلية.

وفى عام ١٩٧٧ عقدت فرنسا صفقة ضخمة مع العراق بمبلغ ١,٧ بليون دولار لتزويده بطائرات (ميراج اف ـ ١) وتدريب فنيين عراقيين. وساعدت ألمانيا الشرقية صدام حسين على إنشاء أول مصنع عراقى لإنتاج الغازات السامة. وبعد أن قامت إسرائيل بنسف المفاعل النووى العراقى عام ١٩٧٩ إستمرت العلاقة النووية بين فرنسا والعراق وباعت فرنسا مزيدا من الطائرات (اف ـ اس) للعراق مقابل الحصول على ربع إنتاجه من البترول!

وإبتداء من عام ١٩٨٠ بدأت الولايات المتحدة الإنحياز للعراق ليكون ثقلا معادلا ومضادا للخمينى، وإستهدف صدام من تحسين علاقته بأمريكا الحصول على التكنولوجيا العسكرية المتقدمة منها، وحصل منها بالفعل على كميات كبيرة من الأسلحة المتقدمة والمواد اللازمة لتصنيع الأسلحة.

وتعاون الألمان الغربيون مع صدام حسين خلال الثمانينات لبناء واحدة من أكثر ترسانات العالم تنوعا بالأسلحة غير التقليدية، وكانت

هناك أكثر من ١٠٠ شركة ألمانية تتعامل مع صدام حسين تعاقدت إحداها على بناء مصنع «سامرا» للمبيدات الحشرية ثم أدخلت عليه ستة خطوط لتصنيع أسلحة كيماوية، وكان يعتبر من بين أكبر مصانع إنتاج الأسلحة الكيماوية فى العالم.. وأقام الألمان الغربيون قبل ذلك مصنعا لغاز الأعصاب فى منطقة ما بالعراق، وبدأ صدام فى يونيو ١٩٨٢ برنامجا باهظ التكاليف لبناء شبكة من المخابئ تحت الأرض وأشرفت شركة ألمانية على بناء قصر فاخر تحت قصر الرئاسة بأكثر من ٣٠٠ قدم، كما بنى صدام ٣٠٠ مخبأ مسلح للطائرات ومثلها لطائرات هيكلية للخداع! وحصل كذلك على ٦٠ طائرة هليوكوبتر أمريكية، وقدمت له وزارة الزراعة الأمريكية إئتمانات وضمانات وقروضا ببلايين الدولارات وزودته الأجهزة الأمريكية بمعلومات سرية عن أنشطة السلاح الجوى الإيرانى، وعمل صدام مع الأرجنتين على تنفيذ برنامج سرى لإنتاج صاروخ موجه يحمل إسم «كوندور» وإشترى أسلحة متطورة من حكومة جنوب إفريقيا.. وظلت فرنسا تورد للعراق طائرات ميراج المقاتلة حتى يوليو ١٩٩٠، أى قبل غزو الكويت بأيام..!

ويكشف الكتاب كيف استمرت المساعدات الغربية لبناء ترسانة صدام حتى بلغت ديون العراق ٧٠ بليون دولار فى هذه الصفقات. وحين افتتح صدام أول معرض دولى للإنتاج الحربى فى بغداد اشتركت فى هذا المعرض ١٤٨ شركة من ٢٨ دولة عرضت فيه أحدث أسلحتها مع أسلحة من إنتاج ١٩ مصنعا عراقيا..

هل يمكن أن تفيدنا هذه المعلومات فى معرفة بعض ما كان خافيا؟!

وهل يساورنا شك بعد أن أصبحت مثل هذه المعلومات الموثقة فى أيدينا، فى أن «القائد الملهم».. «المنتصر بالله».. لم يكن إلا لعبة القوى العظمى. أعدته لدور لم يفطن إليه، فعمل لحسابها وهو يظن أنه يعمل لحساب نفسه ولتحقيق مجده الشخصى. وفى إعتقادى أن هذا الكتاب ـ وأمثاله ـ إذا أحسنا قراءتها وفهم ما بين سطورها، فإنها تفيدنا أعظم فائدة فى إدراك طبيعة «الفخ» الذى ينصب «للقادة الملهمين» على وجه الخصوص، لأنهم فى حقيقتهم يحكمون بعقلية الدكتاتور، وينفردون بوضع السياسات وإتخاذ القرار، ويظنون أنهم لا يخطئون أبدا، ولا يكتشفون أن كل حياتهم أخطاء إلا بعد أن يكونوا قد دفعوا بلادهم إلى الهاوية.

أما الديمقراطية.. درع الحماية الحقيقية من النكسات والكوارث والهزائم.. فما أبعدها ـ بصورتها الحقيقية ـ عن أذهانهم.. ولا يستطيع أمثال هؤلاء الحكام أن يعيشوا فى مناخ الحريات والديمقراطية.

أوان التفكير بصوت عال

بعد أن إنتهت المأساة التى سببها الرئيس صدام حسين للأمة العربية، لن تدع لنا الأحداث القادمة فى المستقبل القريب جدا فرصة للبكاء على الأطلال، ومهما يكن حجم المرارة والدموع والخسائر فى العالم العربى نتيجة هذه الحرب المجنونة فليس أمامنا إلا أن نحتفظ بقدرتنا على التعامل مع الأحداث بيقظة ووعى، ونبادر بوضع تصور لمستقبلنا ومستقبل المنطقة قبل أن تفرض علينا تصورات وضعها غيرنا منذ وقت ليس قصيرا.

صحيح أن حجم النكسة التى سببها الرئيس العراقى للعالم العربى أكبر من جميع النكسات التى مرت به من قبل، ولكن هذه الأمة قادرة برغم ذلك على إستيعاب الصدمة، وتجاوز آثار المأساة، وإعادة بناء مستقبلها على أسس جديدة، ولعل هذه المأساة تكون بداية عصر

عربى جديد ليست فيه أطماع الزعامة، ولا ممارسات القوة، ولا الإصرار على الإنفراد بالسلطة.

ولعل جو الكآبة والحزن القومى العميق الذى يمر بالأمة العربية اليوم هو أنسب وقت للتفكير القومى الجماعى بصوت عال لإعادة فحص قضايا تبدو مستقرة، وأفكار تبدو بديهية، لكن الأزمة كشفت عن أنها مازالت تحتاج إلى إيضاحات كثيرة. مثل مفهوم الزعامة فى الأمة العربية، ومفهوم الوحدة العربية ذاته، وعلاقة الدول العربية بعضها ببعض، وقيمة المواثيق التى يوقعها القادة وتتخذ شكلا دستوريا وتظهر الممارسات جديتها، ثم تكشف الأحداث عدم مصداقيتها، بل ونحتاج إلى إعادة فحص علاقتنا بأنفسنا، إلى أى مدى يجرى العمل على تحقيق شعارات الوحدة والإخوة والتعاون والتقارب والتكامل العربى... وماذا حقق بالضبط فى أرض الواقع، وماذا حقق على الورق وفى الخطب، وإلى أى مدى استشرى الزيف فى الخطاب العربى حول القضايا العربية المصيرية ـ مثل قضية فلسطين ـ حتى أصبحت قضية تستغل وقت اللزوم للإستهلاك المحلى، أو لإكتساب شعبية زائفة بإثارة المشاعر، أو كورقة ضغط فى لعبة خطرة ليس لها هدف إلا فرض الهيمنة والتوسع الإقليمى كما فعل الرئيس صدام حسين.

أشياء كثيرة فى حياتنا، وسلوكنا، وأفكارنا، ومعتقداتنا السياسية والإجتماعية والثقافية تحتاج إلى مراجعة وإلى إعادة فحص وغربلة.

ولا أظن أن مهمة مراجعة مكونات العقل المصرى والعربى مهمة السياسيين وحدهم، ولكنها مسئولية المثقفين أولا، وحق للجميع دون إستثناء، لأننا رأينا بأعيننا، كيف أنه حين يرتكب مجنون خطأ ما، فإن الثمن لا يدفعه هو ولكن يدفعه شعبه أولا، ثم يدفعه العرب جميعا، الذين أيدوه والذين عارضوه على السواء، الخسارة تلحق الجميع، ولذلك فإن البداية الصحيحة للإنقاذ ـ فيما أتصور ـ هى إدارة حوار قومى واسع إلى أبعد مدى، يشارك فيه الجميع دون إستثناء، ودون مصادرة أو إدانة أو تشكيك فى ولاء أو إخلاص شخص أو تيار، وأيضا دون إدعاء استئثار بالحكمة والصواب، وقبل ذلك دون مزايدة رخيصة من كذابى الزفة، فالمسألة تتعلق بالمصير، وبالمستقبل الذى سيأتى بعد أن يموت كل من هم على الأرض العربية وتبقى سيرتهم، ـ بالخير أو بالسوء ـ وتمتد آثار أعمالهم وتصرفاتهم لتحدد مصير أجيال قادمة.

هذا الحوار المفتوح حول قضايا المستقبل لا ينبغى أن يدور فى إطار الأحزاب، ولكن يجب أن يعلو على الإنتماء والولاء الحزبى، لكى تطرح فيه جميع القضايا القومية دون إستثناء ودون حساسية أو محاذير، ودون إلتزام بخط حزب أو فئة... إبتداء من: من نحن، وماذا نريد، ومن فى العالم معنا، ومن ضدنا، وأين مصالحنا، وما هى بالضبط هذه المصالح، وأين الخطر علينا وممن بالضبط سيجئ غدا أو بعد غد، وكيف يمكن إدارة العلاقات العربية فى حدود الممكن دون إغراق الأمة فى الأحلام والوهم... ثم ينتهى الحوار فى آخره

بتحديد استراتيجية واضحة المعالم للمستقبل العربى.. استراتيجية.. وليست كلمات جميلة وشعارات قديمة جوفاء.. ولا ترديدا لهذا النوع من المخدرات الفكرية التى أدمنها بعض السياسيين والمثقفين.. استراتيجية أساسها فكر واقعى يرى الحاضر بكل ما فيه.. ويقدر على طرح رؤية تستشرف وتتوقع وتضع ملامح المستقبل القريب والبعيد.. وتحدد كيف نحمى أنفسنا من تكرار مأساة صدام حسين مرة أخرى.. كيف نجعل الأرض العربية غير صالحة لغرس الأفكار المدمرة التى تجيد المراوغة وتلعب على كل الحبال... نحتاج إلى استراتيجية حقيقية قابلة للتطبيق وليست تمنيات.. استراتيجية نابعة من تحت.. من القاعدة.. من آراء وتطلعات الشعوب وليست مفروضة من فوق من صنع القادة وحدهم، تمثل الحد الأدنى الممكن من الإتفاق العربى، ومسموح بالإختلاف فيما عداها دون إستخدام الأسلحة العربية التقليدية من إتهامات العمالة والخيانة... وباقى القائمة الجاهزة.

من الممكن أن يكون هذا الحوار بداية مرحلة جديدة للشعوب العربية، يوقظ وعيها، ويجدد حماسها، ويقنعها بمواصلة الجهاد والعمل، ومن الممكن أن يكون وسيلة لهروب هذه الشعوب إلى قوقعة السلبية المعهودة.. يتوقف الأمر على مدى الجدية والحرية.. سوف يساعد هذا الحوار على إطلاق البخار المحبوس فى الصدور ولكن هذا لا يكفى.. سوف يعطى فرصة للصراع الفكرى، وهذا شئ عظيم يلزمنا الآن لبلورة الرأى وتوضيح الرؤية فى مختلف

الشئون المصيرية... سوف يسمح بسماع أصوات جديدة لم تجد من قبل فرصة لإعلان رأيها، أو إختبار أفكارها بالإحتكاك مع أفكار الآخرين... وسوف تظهر عقول وأفكار جديدة يمكن الإستفادة بها فى إثراء العمل الوطنى وتجديد دمائه، وهذا مطلوب بقوة.

سوف يساعد هذا الحوار فى إنقاذ العالم العربى من حالة الإنقسام التى أحدثها الرئيس صدام حسين، سواء بمناوراته التى سبقت وصاحبت عدوانه على الكويت، أو بالشعارات الكاذبة التى خدع بها كثيرين، أو بالنزعات الإنتهازية التى آثارها فى بعض الدوائر..

ليس هذا وقتا للزهو، أو التشفى، أو تصفية الحسابات.. فهذه أمور صغيرة لن تفيد إلا أعداء العرب... ولكنه وقت للعمل... وأول العمل السعى إلى تنقية الأجواء من جديد، وإحتواء آثار الأزمة فى العالم العربى، بحكمة بالغة، وخصوصا آثارها النفسية التى يمكن - إذا تركت بغير علاج - أن تؤدى إلى تصدع الشخصية العربية، والعودة بها إلى فترة التراجع التى إنقطعت فيها صلاتها بالحاضر والمستقبل.

المستقبل هو ما يجب أن يشغلنا، وهو الأولى الآن بتفكيرنا، والأحق بجهدنا، قبل أن نصبح خارج التاريخ..!

وقت الإختيار..!

عقلاء الأمة يجمعون الآن على أن هذا وقت المصالحة العربية، يدعوهم إلى ذلك شعورهم الصادق بأن الموقف دقيق، والزمن إختلف.. ذهبت السكرة وجاءت الفكرة.. وإذا لم يلتئم بسرعة الشرخ العربى الذى أحدثه صدام حسين فسوف يواجه العرب أسوأ مصير، وسوف تلعنهم الأجيال تلو الأجيال.. لكن فى أعماق الشارع العربى شعور بأن المصالحة هذه المرة لا يمكن أن تكون مثل المرات السابقة، لقاءات وتبادل للقبلات وتعبيرات تقليدية عن المشاعر الأخوية، وإلا فسوف تكون نوعا من التضليل يفسد الحاضر ويجهض المستقبل، فإما أن تكون مصالحة حقيقية قائمة على أسس موضوعية سليمة تضمن لها البقاء والنمو، وإما فليبق الحال على ما هو عليه إلى أن يأتى جيل أفضل وأكثر إخلاصا وفهما ومقدرة ليحققها.. فإن دقة الظروف تقتضى المصارحة قبل المصالحة، وفتح الجراح قبل

إلتئامها. . تماما كما يفعل الجراح لكى يضمن عدم تكرار ظهور الأورام من جديد.

لابد من المصارحة بأن الشعوب العربية أصبحت أكثر نضجا من بعض قادتها، ولم تعد تنطلى عليها الأكاذيب أو الحيل القديمة، لقد تعلمت الشعوب من مآسى الماضى، وبعض القادة لم يتعلموا، يظنون أن وسائل الدعاية والتضليل الإعلامى تكفى لتغطية الحقائق إلى الأبد. لقد قيل فى تبرير غزو الكويت أنه الطريق إلى تحرير فلسطين، ولم يصدق طفل فى أى بلد عربى هذه التخاريف.

لكن بعض القادة رددوها، ولم يرق فهمهم إلى إدراك ما حدث وهو أن غزو الكويت كان الطريق إلى تحويل الصراع العربى الإسرائيلى إلى صراع عربى - عربى وتفوز بالغنيمة إسرائيل. لابد من المصارحة بأن غزو صدام حسين للكويت تسبب فى إهدار القوة العربية فى مجملها، والقوة العراقية بوجه خاص وهذا كسب جديد أهداه الرئيس العراقى لإسرائيل. . وفى مواجهة الشعار الزائف والمراوغ الذى رفعه بالربط بين غزو الكويت وتحرير فلسطين رفع شعارا آخر هو عدم وجود رابطة، فإستفادت إسرائيل سياسيا من الجانبين. ! كما أن هذا الغزو، أرسى سابقة عربية لما كانت تنفرد به إسرائيل من ضم الأراضى بالقوة، وإخفاء أطماعها وراء ادعاءات الحقوق التاريخية، وسوف نواجه متاعب كثيرة فى المستقبل نتيجة هذين المبدأين الخطرين. وقد تفتح هذه المتاعب أبواب جهنم على العالم العربى، وقد لا يعرف أحد بعد ذلك كيف يغلقها. فما

اكثر الذرائع التاريخية، وما أكثر السلاح والأطماع فى أرض العرب.!

ولابد من المصارحة بأن حالة التخلف الحضارى فى العالم العربى هى البيئة التى تنبت القلاقل، والزعامات المجنونة، ويمكن فهم ذلك من متابعة ما يجرى فى بلاد أخرى مثل البانيا، آخر دولة شيوعية إنهارت فيها دكتاتورية الحزب الواحد وحكم الفرد بحركة شعبية داخلية كان دافعها الأول الرغبة الجماهيرية فى التخلص من الفقر وتحقيق الديمقراطية. كما يمكن فهم الواقع العربى أفضل بعد تحليل الثورات الشعبية التى تفجرت فى شرق أوروبا، وكان دافعها الحقيقى العميق هو إرادة الشعوب فى اللحاق بالعصر، وكسر حواجز التخلف، ورفض الإستبداد والسيطرة السياسيةوأساليب القمع المفروضة عليها، والشعور الجارف بأن هذه الشعوب وصلت إلى درجة تستحق فيها أن تشارك فى المسئولية والقيادة، وإختيار الحكومة إختيارا حرا، وممارسة سيادة القانون بحق.

إذا كان عام ١٩٨٨ هو عام التحول العظيم فى دول شرق أوروبا فإن عام ١٩٩١ سيكون علامة وبداية تحولات فى العالم العربى بعد الحرب المجنونة التى تسبب فيها صدام حسين.

ومن الأفضل أن تكون المبادرة بأيدينا، لكى تتم هذه التحولات بطريقة، هادئة وسلمية، ولعل ما يجرى داخل الإتحاد السوفيتى يعطى صورة أوضح، فالإتحاد السوفيتى واجه مأساة الإنهيار، ليس

بسبب الأزمة الإقتصادية فقط، ولا بسبب النزعات القومية الإستقلالية فقط ولكن أيضا ـ وبالإضافة إلى كل ذلك ـ بسبب الحقيقة التى إكتشفها الشعب السوفيتى فى لحظة تاريخية تراجيدية، وكان قادته يخفونها عنه طوال سبعين عاما، وهى أنه متخلف عن الغرب بكثير. هذه اللحظة نزعت أستار الأكاذيب، وأسقطت أقنعة الزيف، هى لحظة إن جاءت لابد أن يتحرك فيها الشعب بالتمرد على الأوضاع القائمة، وعلى قادته السابقين والحاليين، وبالسعى لتحقيق القوة والحماية لنفسه من داخله.. لذلك حسم الشعب السوفيتى فى عام ١٩٨٨ الصراع الطويل الذى إستغرق ٢٠٠ عام حول الشكل الأمثل للحكم، وكيفية بناء السلطة، ووسائل تنمية الإقتصاد القومى على أسس سليمة، وتحقيق العدالة الإجتماعية دون تزييف..

أصبحت قضية الديمقراطية قضية حياة أو موت فى الإتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا بعد سنوات ظن فيها قادتها أن شعوبهم إستسلمت لما كانوا يروجونه من أنها لم تصل إلى الدرجة التى تصبح فيها الديمقراطية السياسية من ضرورات حياتها، وإن لقمة العيش وحماية الأمن القومى أهم من هذا الترف الغربى، وحلت الدكتاتورية ٧٠ عاما بالحزب الواحد والرأى الواحد والزعيم الواحد.. وقيل أن هذا ضرورى لمرحلة توحيد الأمة وحشد طاقاتها بدلا من تبديدها فى الخلافات السياسية، ولكى توفر الشعوب طاقة الجدل لتحقيق الإنجاز والوصول إلى القوة.. وكانت نتيجة هذا

المنطق المغلوط إن خسرت الشعوب فى النهاية كل شئ: الحرية، والإنجاز، والقوة (!).

سقطت هذه الأفكار فى الإتحاد السوفيتى وشرق أوروبا وأخيراً فى ألبانيا. . ثم سقطت سقوطا مدويا فى بغداد. . وبدأت التعددية الحزبية فى قلاع الدكتاتورية فى غرب إفريقيا، وظهرت حتى فى هايتى، وإنتهت الحكومات العسكرية فى أمريكا اللاتينية مع عام ١٩٨٩، وكان لابد أن تسقط فى العالم العربى أخيرا، حيث ظهر أن النظام الذى حكم العراق بشعارات براقة ـ آخرها شعارات الإسلام ـ هو حكم يقوم على القوة والتسلط والكذب والتضليل وهو أسوأ صورة للحكم المتخلف.

المصارحة هنا واجبة، ماذا سيختار العالم العربى لغده، هل سيختار إستمرار النظم المتخلفة وإن رفعت شعارات جميلة، أم يختار عصرا جديدا من الديمقراطية تفتح له الأبواب على القرن الحادى والعشرين قبل أن يطويه النسيان مع مخلفات التاريخ. . هل ستكون محنة الشعب العراقى والكويتى بداية مرحلة عربية جديدة من العدل والحرية أم سيبقى الوضع وكأن شيئا لم يكن؟ هل ستظهر قيم سياسية حضارية جديدة فى الوطن العربى، أم ستظل نفس القيم القديمة التى تكرس الإستبداد السياسى بمختلف صوره؟

المصارحة حول ذلك كله طريق لابد منه.